الظواهر البلاغية والبنية العميقة في حكم
ابن عطاء الله السكندري

الدكتور / محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة جازان

الملخص

هذا البحث يتجه لدراسة الظواهر البلاغية وما لها من حضور في حكم ابن عطاء الله السكندري، كما يتجه لبيان ما وراء البنية العميقة للحكم من المعاني الزاخرة، وقد لفتت الحكم الباحث بما فيها من إيجاز في العبارة، ودقة في الصياغة، وروعة في الأسلوب، وحضور للتشكيلات البلاغية المتنوعة فيها، وما وراءها من ثراء في المعنى، ومناسبة للسياق.

والبحث يتناول بالدراسة هذه الظواهر البلاغية التي ألح عليها المؤلف في الحكم، والفنون البيانية التي انتقاها لتشكيل بيانه وما وراء هذا الاختيار من أسباب بلاغية، وقد قام الباحث بحصر هذه الظواهر في الحكم ودراستها دراسة تكشف عما بينها من ارتباط من بداية الحكم إلى نهايتها، مع الإشارة إلى المواضع الأخرى التي لم يتناولها البحث بالتحليل والبيان.

والله من وراء القصد

مقدمة

الحمد لله الذي ﴿**ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٤،٥]، وأصلي وأسلم على سيد ولد آدم، أفصح خلق الله بياناً ، محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن استن بسنته إلى يوم الدين .

وبـــــــعد

فإن حكم ابن عطاء الله السكندري قد رزقت شهرة وصيتاً في سماء الأدب والبيان ، كما رزقت مكانة كبيرة في ميدان السلوك والزهد ، وذلك يرجع إلى ما تتمتع به هذه الحكم من صفاء ودقة في العبارة ، وإيجاز في المعنى ، وجرس في الألفاظ ، مع ما تشتمل عليه من أثر في النفوس ؛ لأن موضوعها يدور حول أدب السلوك إلى الله عز وجل ، وقد رُزق صاحبها هذه المكانة بين كبار المتصوفة في عصره وما تلاه إلى يومنا هذا بسبب هذه الحكم النثرية البليغة، وما أودعه فيها من لطيف العبارة ، ودقائق البيان،" فلم يكن يُعنى بالأسلوب وحده ولا المعنى وحده، فكان يختار الألفاظ ذات الجرس الخاص، والنغم الموسيقي المؤثر"(١).

والحكمفي حقيقتها وموضوعها قبس من هدي القرآن الكريم، والسنة النبوية،وقد اجتهد العلماء قديماً وحديثاً في شرحها وبيان ما تنطوي عليه أصدافها من جواهر وكنوز يحتاج إليها العارفون والسالكون إلى الله على بصيرة.

ولقد كان ابن عطاء الله ممن عُرف بأدب الوعظ في عصره ، وكان له في الوعظ الأسلوب الساحر ، والبيان الآسر، وكانت عبارته عند طلابه بمنزلة الشعاع الذي يبدد ظلام القلوب والنفوس ، وكما يقول عنه الدكتور شوقي ضيف :" وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثاً نبوياً فتتوالى سيول القول... وتكثر عنده التفريعات والتوليدات في الكلام، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب، مع التنويع الدائم في الأفكار وتشعبها تشعباً وفروعاً لا تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات، بعضها فوق بعض، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحاً شائقة، وقد يستعين بالتكرار مع

(١) حسب الله، محمد أحمد، مقدمة شرح ابن عجيبة على الحكم، ط دار المعارف القاهرة، (١٤٠٤)هـ (١٩٨٣) م، صـ ١١

تلوين الأسلوب ألواناً مختلفة..."([1]) ،" فالرجل كان أديباً، مشرق الحديث، حلو العبارة، وقد أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه بالحلاوة ، وسحر التأثير ، والجلالة"([2]).

وصدق ابن عطاء حيث قال في الحكمة الرابعة والثمانين بعد المائه:" **من أذن له في التعبير – فهمت في مسامع الخلقعبارته، وجليت إليهم إشارته**".وعلى كثرة شروح الحكم قديماً وحديثاًلم تدرسالظواهر البلاغية فيها بصورة مستقلة، وإنما هي إشارات سريعة أثناء الشرح عند بعض الشراحكما هو الحال عند ابن عبّاد النفّزي الرنديت (٧٩٢)هـ، وابن عجيبة ت (١٢٢٤)هـ،وغيرهما من الشرّاح... ([3])؛ حيث إن اهتمامهم كان منصباً على ما تزخر به الحكم من آداب السلوك وأصول الطريق عند الزهاد والمتصوفة، وما تنطوي عليه عباراتها من معان تتصل بالتصوف.

ولقد لفتني ما في الحكم من ظواهر بلاغية متفرقة ألح عليها الشيخ في حكمه، والتزمها في تشكيل بيانه بصورة لافتة؛ حيث جاءت هذه الظواهر كاشفة عن مضمون أفكاره مع اختلاف المواضع والموضوع الذي جاءت فيه.ووجدت من هذه الظواهر التي تتكاثف ويكثر حضورها بشكل يستحق الدراسة ظاهرة التشكيل بـ "التصوير" على اختلاف أنواعه وأنماطه من تشبيه، واستعارة، وكناية، وكذلك ظاهرة التشكيل بـ "فن السجع" في حال كونه متوشحاً ببعض الفنون البلاغية والبديعية الأخرى: كالأساليب الإنشائية، والإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، أو المطابقة والتقابل ([4]) على وجه يتناسب فيه مع المعنى إيجازاً وإطناباً، مع السلاسة في العبارة، والتناسب في النظم.

---

(١) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، مصر، ط دار المعارف، القاهرة، ط ٢، (١٩٩٠) م، صـــ ٤٧٣، ٤٧٤

(٢) الشيال، جمال الدين، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ط مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط١، (١٤٢١)هـ، (٢٠٠١) م، صـــ ٢١٧

(٣) من الدراسات الحديثة للحكم في جوانب متعددة : الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندرية دراسة في السمات اللغوية ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة العربية للباحث فهد درهم الغانمي ، (١٤٣٧هـ ، ٢٠١٦م)، والتماسك النصي في بنية حكم ابن عطاء الله ، رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ،كلية الأداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية للباحث محمد محمو عيسى محاسنة ، ٢٠١٠ م، والمحسنات اللفظية في مناجاة ابن عطاء الله في كتاب الحكم ، دراسة تحليلية بلاغية، رسالة ماجستير ، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية ملانج ، كلية العلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، إعداد سعيدة ألفي نور فائزة ، (٢٠١٧)م.

(٤) وهذا على سبيل المثال لا الحصر، فهناك فنون بلاغية أخرى نجد لها حضوراً في حكمه، ولكن ليست في حدود الظاهرة، وإنما الإشارة هنا إلى ما كان له حضور ظاهر ولافت في نص الحكم.

وهي ظاهرة تستحق الدراسة لنقف على سر هذا الجمال في تركيب هذه الحكم، وكيف كتب لها هذا الذيوع والانتشار على مر القرون إلى يومنا هذا، وما وراء ظواهرها البلاغية من بنية عميقة ترتبط بالمعنى، وسر تكاثف هذه الظواهر وحضورها دون غيرها مع غياب بعض الظواهر الأخرى في بعض نصوص الحكم. فالدراسة تسعى جاهدة للكشف عن أسرار الظواهر البلاغية للنص وما وراء بنيتها السطحية من دقائق المعنى في البنية العميقة. ومن هنا فالبحث سيفيد من شروح الحكم المطبوعة قديمها وحديثها بما يساعد على الوصول لأهدافه وغاياته.

وقبل الشروع في البحث أقدم تمهيداً يتضمن: ترجمة موجزة لابن عطاء أبين من خلالها ما كان يتمتع به الشيخ من منزلة علمية بين معاصريه،مع تعريف موجز بالحكم وموضوعها، وأسلوبها بشكل عام،وبعد ذلك يأتي المبحث الأول الخاص بالظواهر البلاغية في الصور، ثم المبحث الثاني للظواهر البلاغية في التراكيب، وبعد ذلك الخاتمة، والفهارس.

والله أسأل أن يسدد قلمي، وأن يجري الحق على لساني وقلمي، إنه سميع قريب مجيب.

تمهـــــيد

ترجمة موجزة لابن عطاء

هو " الإمام تاج الدين أبو الفضل وأبو العباس أحمد بن محمد الشاذلي بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسباً، المالكي مذهباً الإسكندري داراً، الشاذلي طريقة ت (٧٠٩) هـ" (١).كان رحمه الله جامعاً لأنواع العلوم من تفسير،وحديث، ونحو، وأصول، وفقه، وغيرذلك، وكان جده عبد الكريم فقيهاً شرح المدونة،وكان متكلماً على طريقة أهل التصوف، واعظاً انتفع به خلق كثير، وسلكوا طريقه، وكان شاذلي الطريقة ينتمي للشيخ أبي الحسنالشاذلي، وأخذ الطريقة عن أبي العباس المرسي عن الشيخ أبي الحسن، وقد صنف كتاباً في مناقب شيخه أبي العباس، وشيخ شيخه أبي الحسن الشاذلي(٢). ولقد كان الشيخ هو المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، بل كان" أعجوبة زمانه في كلام التصوف"،وقال عنه الذهبي: " كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم في الجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس،ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير، وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى " (٣) .

---

(١) ينظر ترجمته في ذيول العبر للذهبي صـ٢١ ، ٢٢، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (١٤٠٥) هـ (١٩٨٥) م ، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان لعبد الله اليافعي ٤/ ١٨٥ ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٢٣/٩ ، ٢٤ ترجمة رقم (١٢٩٧) ، ط دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي ، والديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون ص ١٣١ ، الترجمة رقم (١٢٧) ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (١٤١٧) هـ (١٩٩٦) م ، و الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٧٣/١ ، ٢٧٤ ،الترجمة رقم (٧٠٠) ، ط دار الجيل (١٤١٤) هـ (١٩٩٣) م ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٢٢٤/٨ ، ٢٢٥ ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (١٤١٣) ه (١٩٩٢) م ، وغربال الزمان في وفيات الأعيان ليحيى الحرضي اليماني صـ ٥٨٠ ، ٨٨١ ، ط مطبعة زيد بن ثابت بدمشق (١٤٠٥) هـ (١٩٨٥) م ، وطبقات الشعراني لواقح الأنوار في طبقات الأخيار ٢٧/٢، ط دار الطباعة العامرة الشرقية (١٢٩٩) هـ ، وكشف الظنون للحاج خليفة٦٧٥/١، ط دار إحياء التراث العربي ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦/٨ – ٣٨ ، ط دار ابن كثير، ط أولى (١٤١٣) هـ (١٩٩٣) م، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ١/ ١٠٧ ، ١٠٨ ، ط دار الكتاب الإسلامي، وإيضاح المكنون لإسماعيل البغدادي ، ٤١٣/٣ ،ط دار إحياء التراث العربي، وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي ١٠٣/٥، ط دار إحياء التراث العربي ، وجامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني ١/ ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ط مركز بركات رضا بالهند (٢٠٠١) م ، والأعلام للزركلي ٢٢١/١ ،٢٢٢ ،ط دار العلم للملايين ، ط الخامسة عشرة (٢٠٠٢) م، ومقدمة لطائف المنن ص٧ ، ط دار المعارف ، ط ثالثة (٢٠٠٦) م .

(٢) وهو كتاب " لطائف المنن " الذي طبعته دار المعارف يتحقيق الأشتاذ الدكتور / عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق رحمه الله.

(٣) الدرر الكامنة ٢٧٤/١

شعره: ترك ابن عطاء شعراً حسناً، ونظماً رقيقاً في طريق القوم ، وحول الزهد في الدنيا ، والسعي والعمل للآخرة . ولقد ذكر كثيراً من شعره في كتابه " لطائف المنن "، ومن ذلك قوله في مدح العارفين، وإرشادهم للسالكين :

أَمُرتَقِبَ النجومِ مِنَ السَّمَاءِ نجومُ الأرضِ أَبْهَى فِى الضِّيَاءِ
فَتِلْكَ تُنِيرُ وَقْتاً ثُمَّ تَخْفَى وَهَذِي لَا تُكَدَّرُ بِالخَفَاءِ
هِدَايةُ تِلْكَ فِي ظُلَمِ اللَيَالِي هِدَايَةُ هَذِهِ كَشْفُ الغَطَاءِ(١)

وله أبيات أخرى كثيرة متفرقة في موضوعات مختلفة،وأغراض متنوعة. هذا ولقد أحصيت أشعاره في كتابه "لطائف المنن " فجاءت في مائة وستة وثمانين بيتاً، وأشعاره في كتابه " التنوير في إسقاط التدبير " جاءت في أربعةً وخمسينَ بيتاً، وشعره في الزهد في الدنيا، والترغيب في الآخرةشعر عذب رقيق (٢).

الحكم وموضوعها: وضع ابن عطاء هذه الحكم الرائعة، وعددها مائتان وأربع وستون حكمةً (٣) لإيضاح طريق العارفين الموحدين، وبيان منهج السالكين المتجردين، وكما يقول ابن عبّاد النفَّزِي ت (٧٩٢)هـ عنها: " من أفضل ما صنف في علم التوحيد، وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد ..." (٤).وقد ذكر ابن عجيبة أن حكم ابن عطاء مضمنة من علوم القوم أربعةً: " الأول: علم التذكير والوعظ، وقد حاز منه أوفر نصيب ...،والثانى: تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال... والثالث: تحقيق الأحوال والمقامات،وأحكام الأذواق والمنازلات، وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه... والرابع: المعارف والعلوم الإلهامية ، وفيه منها ما لا يخفى، لكن كتبه ملئت بشرحها لا سيما" التنوير "، و " لطائف المنن " اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب. وبالجملة فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة

(١) لطائف المنن ص ٣٨
(٢) التنوير فى إسقاط التدبير ص ١٩، ط دار جوامع الكلم – (١٩٩٩) م.
(٣) هناك حكم أخرى منسوبة لابن عطاء، وهي المعروفة بـ " الحكم الصغرى "، وعددها ستون حكمةً ألحقها الدكتور / عاصم إبراهيم الكيّالي في آخر شرحه للمختارات من الحكم العطائية، وكذلك في آخر كتاب "الواضح المنهاج في نظم ما للتاج " لعبد الكريم بن العربي بنيس، وهو نظم للحكم العطائية بتحقيق الكيّالى أيضاً، ولكن عند التأمل يتضح أن هذه الحكم ليست لابن عطاء الله – وإن حاول كاتبها أن ينسج على منواله – فقد خانه التوفيق في ذلك. كما أن هذه الحكم الصغرى لم يشر إليها أحد ممن ترجموا لابن عطاء وذكروا مؤلفاته، كما لم يشر إليها أحد من شراح الحكم قديماً، فأسلوبها ينزل في الفصاحة والبلاغة عن درجة الحكم، ويبدو أثر الافتعال واضحاً عليها، كما أن أكثر معانيها في حقيقتها تكرار لمعاني الحكم بأسلوب آخر فليتأمل ذلك!
(٤) ينظر شرح الحكم لابن عباد النفزي ٢/١

مع زيادة البيان، واختصار الألفاظ "([1]).ولذلك لما عرض ابن عطاء الحكم على شيخه أبي العباس المرسيفتأملها وقال له: " لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء[للغزالى] وزيادة "([2])كما وضع عليها من الشروح القديمة والحديثة بالعربية ([3])، والتركية، والملوية ([4]) ما يدل على أهميتها ومكانتها عند الزاهدين والسالكين إلى الله عز وجل. كما وضع عليها العلماء أكثر من نظم ([5]) بما يتناسب مع مكانتها، وما هي جديرة به، بل وترجمت إلى عدد من اللغات ([6]) كما قام بعض العلماء بتخريج أحاديث بعض شروحها ([7]). ومما تجدر إليه إليه أن بعض شراح الحكم قديماً وحديثاً قد رتبوها على الأبواب ترتيباً يخالف ترتيبها المعهود، ومن ذلك: ما ذكره أبو بكر الأحسائي ت (١٢٧٠)هـ في شرحه على الحكم المسمى " سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم" أن ترتيبها جاء على الأبواب التي رتبها بعض علماء الصوفية([8])، ورتبها الشيخ محمد خليل الخطيب ت (١٤٠٦)هـ ترتيباً أبجدياً.

(١) ينظر ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني، إيقاظ الهمم شرح الحكم، القاهرة، ط دار المعارف، (١٤٠٤)هـ(١٩٨٣)م، تحقيق: محمد أحمد حسب الله صـ ٣٠ باختصار .

(٢) ينظر كشف الظنون ٦٧٥/١

(٣) عدد شروح الحكم بالعربية قديماً وحديثاً واحد وخمسون شرحاً، ولقد وضع عليها العلامة أحمد بن محمد زروق ت (٨٩٩)هـ وحده ستةً وثلاثين شرحاً كما ذكر أبو الفيض المنوفي، وشرحه لها من أحسن الشروح . ولقد ذكر في بعض شروحه أنه درس الحكم خمسة عشردرساً، وكتب كل مرة شرحاً من ظهر القلب كله بعبارة أخرى، وقيل: إن للشيخ زروق ثلاثة شروح على الحكم، لكن الأصح ما كتبهنفسه. ينظر كشف الظنون ٦٧٥/١

(٤) شرحها بالتركية قسطامويلي أحمد ماهر بن الحافظ محمد سعيد بن نور الدين محمد القسطموني الرومي الأديب الحنفي المعروف بـ للقلى أفندي زاده أحد رؤساء المحاكم العدلية بالقسطنطينية، وعنوان شرحه " المحكم في الحكم ". وهو تركي نظماً ونثراً وإيضاحاً، وهو مطبوع في مجلدين. أما شرح المالوية فهو لمؤلف مجهول، وهو مطبوع بمكة، ذكره بروكلمان. ينظرالحكم لابن عطاء أقوى دستور تربوي صاغه في القرن السابع الهجري للأستاذ / أحمد عز الدين، ط منتدى دار الإيمان، بدون تاريخ.

(٥) نظمها ابن عبّاد الرندي ت (٧٩٢) هـ ، وذكر الشيخ زروق أن هذا النظم (٨٠٠) ثمانمائة بيت، ونظمها كمال الدين بن علي شريف ت (٩٠٦) هـ وسمى نظمه " فيض الكرم "، ونظمها عبد الكريم بن العربي بنيس في نظم سماه " الواضح المنهاج في نظم ما للتاج "، ونظمها ابن إبراهيم بن مالك، وعلي شهاب الدين محمد بن سعد الدين وسمى نظمه " فيض الكرم في شرح الحكم "،ونظمها عبد الله بن علي المكي الملقب بـ " الفارس " في نظم سماه " فاتحة السالك لمولاه "، ونظمها أبو الفضل محي الدين بن حسين الملاح مع المناجاة، وسمى نظمه " الغرر البهية في نظم متن الحكم السكندرية "، وقد شرحها نظماً نور الدين البريفكاني في شرحه تلخيص الحكم ، ونظمها الشيخ أحمد بن الصديق الغماري .

(٦) فهناك الحكم وشرحها باللغة الإنجليزية، وترجمة كاملة للحكم باللغة الفرنسية، وشرح لبعضها بالفرنسية أيضاً، والحكم كاملة باللغة الأسبانية، وشرح ابن عبّاد بالإنجليزية، وشرح ابن عجيبة بالإنجليزية أيضاً.

(٧) للسيد عبد العزيز بن الصديق الغماري تخريج على أحاديث شرح ابن عجيبة للحكم.

(٨) الأحسائي، أبو بكر بن عمر، سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم، ط دار الفتح، الأردن، ط ١، (١٤٣٢)هـ (٢٠١١)م، صـ ٣٣

أسلوب الحكم:تميز أسلوب ابن عطاء في هذه الحكم بالفصاحة والبلاغة، والدقة والبراعة،وحسن الصياغة، وجميل العبارة مع الإيجاز الجامع، والاختصار النافع، والتصوير الدقيق الرائع، مع ما فيها من الجرس في الألفاظ، ومناسبة الفواصل للمعاني،كما تميز أسلوبها بسهولة الألفاظ ورقتها في بعض المواضع، وجزالتها وقوتها في مواضع أخرى بما يتلاءم مع المعنى، وألفاظ الحكم تميزت بالفصاحة والوضوح، والسلاسة والعذوبة ، ولذتها في الآذان مع استقامتها في نظم الكلام.

أما عن المعاني، فتتميز بالعمق والجدة والأصالة، فهي في إصلاح النفس وتهذيبها، وتحقيق التوحيد لله(عز وجل).وقد تميزتبظواهر بلاغية كان لها حضور لافت فيها تمثلت في فن التصوير بألوانه وأنواعه المختلفة، و فن السجع وغيره من فنون البديع الأخرى كالمطابقة والتقابل في كثير من الحكم، ونجد اجتماع لبعض هذه الألوان البديعية أو بعضهامع الفنون البلاغية الأخرى بما يتلاءم مع المعنى في كل موضع كما سبق، ونلمح أيضاً غياب السجع في بعضها، وهذا الحضور والغياب لهذه الفنون له ارتباط وثيق ببلاغة النص ومعناه، وهو ما سيتضح من خلال الرصد لهذه الظواهر وتحليلها تحليلاً يكشف عن قيمتها وأثرها، وما وراء بيتها العميقة من المعنى.

المبحث الأول: الظواهر البلاغية في الصور

استند ابن عطاء إلى الصورة البيانية بأنواعها المختلفة في تشكيل فكرته وتوضيحها في الحكم، وجاءت هذه الصور بحضور لافت لتعبر عن المعنى، وتوضح الغرض، ولم يكن اختيار الصور إلا فيما يتطلبه المعنى، ويقتضيه نظم الحكم.

ودراسة الصور هنا سستتجه إلى بيان ما بينها من رابط معنوي في بنيتها العميقة في بعض المواضع التي جاءت فيها، وستكون دراستها بناءً على هذا الرابط المعنوي بين هذه المواضع، وسر اختيار المؤلف لها دون غيرها في هذا الموضع، وعلاقتها بالصور المناظرة لها؛ ومن هنا فقد تكون الصورة التي نحللها تشبيهاً أو استعارة أو كناية على حسب موضوعها، ومدى ارتباطها بما قبلها؛ وبذلك يظهر لنا كيف وظف المبدع صوره في تشكيل الفكرة في حكمه، وما وراء هذا التشكيل من معنى في بنيتها العميقة.

ولنبدأ مع الصورة الأولى، وهي من الصور التشبيهية. وللتشبيه(١) أثر لا ينكر في إيضاح المعنى وبيانه.وفائدته: " الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار " (٢) فالتشبيه " يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ؛ ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه " (٣).

وقد استدعى ابن عطاء الصورة التشبيهية في مواضع مختلفة من حِكَمِهِ نظراً لما للصورة التشبيهية من أثر فى إبراز المعنوي في صورة محسوسة مشاهدة، وقد أبدع وأجاد في اختيار أجزاء الصورة التشبيهية وفي تشكيلها، وقد جاءت هذه الصورة منسجمة مع الواقع في حياة الناس؛ لأنها جاءت لتعبر عما يدور في خلجات النفوس، فالتصوير في حكم ابن عطاء بشكل عام إنما يشير إلى طبيعة النفس البشرية المؤمنة في كل مكان وزمان، وما يعترض

---

(١) التشبيه كما عرفه ابن الأثير" الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر ، وينوب منابه ، سواءٌكان ذلك حقيقةً أو مجازاً " ، وزاد نجم الدين بن الحلبي عليه " أن تثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به قصداً للمبالغة " .الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير ، ط المجمع العلمي العراقي (١٣٧٥) هـ (١٩٥٦) م ، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد ، والدكتور جميل سعيد، صـ٩٠، وجوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة لنجم الدين أحمد بن الأثير الحلبي ، ط مكتبة المعارف بالإسكندرية، تحقيق : الدكتور محمد زغلول سلام، صـ ٦٠

(٢) السابق نفس الصفحة.

(٣) العسكري، أبو هلال، الصناعتين، القاهرة، ط دار إحياء الكتب العربية، ط أولى (١٣٧١) هـ (١٩٥٢) م ،صـ ٢٤٣ باختصار ،

طريقها في السلوك إلى الله (عز وجل).ومن اللافت أن صور التشبيه في حكم ابن عطاء من التشبيه البليغ، ومن التشبيه التمثيلي، وهما من أبلغ أنواع صور التشبيه نظراً لما فيهما من المبالغة والتركيب في الصورة، ولأن التمثيل له أثر في تحريك النفوس(١).

ومن ذلك ما جاء في الحكمةالعاشرة في قوله: " الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود الإخلاص فيها"(٢).والصورة هنا صورة من واقع الحياة فالأعمال من حيث إنها ظاهرة كالأشباح والأجسام التي لها منظر ظاهر أمام العين، فقد تكون هذه الصور القائمة صوراً خاوية لا عبرة بها ولا منفعة فيها، وكذلك الأعمال التي خلت من الإخلاص، أوفيها حظ من حظوظ النفس صورتها ظاهرة وخادعة، لكن لا أثر لها في الثواب؛ ولذلك جعل الإخلاص في الأعمال مثل الأرواح في الأجساد، فكما أن الأجسام لا تصح لها حياة ولا يستقيم لها وجود بدون الأرواح ، فالأعمال أيضاً لا يكون له قبول أو أثر من الثواب بدون وجود الإخلاص. والصورة هنا في بنيتها العميقة قد أبرزت أمراً معنوياً وهو الإخلاص في صورة محسوسة، وروعة الصورة هنا أنها جاء من التشبيه البليغ(٣)، وقيمتها أنها أبرزت معنى الإخلاص وأثره وأهميته في إصلاح عمل المرء في صورة لافتة من حياة الناس، وأجزاء الصورة هنا من "الصور والأعمال" مناسبة لمعناها تمام المناسبة؛ حيث رسمت صورة راسخة وواضحة لأثر الإخلاص في إصلاح العمل ، فالإخلاص حياة ، والرياء وحظوظ النفس موت وفساد، فضلاً عما اشتملت عليه الصورة من الإيجاز الذي طوى في السياق أثر الإخلاص وأهميته في إصلاح العمل.والمؤلف في هذه الصورة ناظر إلى قوله الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿۞وَإِذَا رَأَيتَهُم تُعجِبُكَ أَجسَامُهُم وَإِن يَقُولُواْ تَسمَع لِقَولِهِم كَأَنَّهُم خُشُب مُّسَنَّدَة يَحسَبُونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَلَيهِم هُمُ ٱلعَدُوُّ فَٱحذَرهُم قَٰتَلَهُمُ ٱللَّه أَنَّىٰ يُؤفَكُونَ﴾[المنافقون: ٤] فهم جسد بلا روح ناطق(٤) " فحسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين"(٥).

(١) القزويني، الخطيب، الإيضاح، القاهرة، مكتبة الآداب، (١٩٩٩)م ،٧/٣

(٢) ينظر في شرح الحكمة النفزي، ابن عباد، والشرقاوي، عبد الله، شرح الحكم، بيروت، ط دار الفكر، وزروق، أحمد بن محمد الفاسي، القاهرة، ط دار الشعب، (١٤٠٥)هـ(١٩٨٥)م، تحقيق :الدكتور عبد الحليممحمود ، ١٢/١ ، صـ ٣٥ ، وشرح ابن عجيبة صـ ٤٩

(٣)والتشبيه البليغ الذي ترك فيه ذكر الأداة ووجه الشبه من أعلى مراتب التشبيه عند البلاغيين. وتسميته بالبليغ مأخوذ من البلاغة بمعنى اللطف والحسن، أو لأنه بلغ القبول من القلوب. ينظر عروس الأفراح للسبكي ٤٥٩/٣، ط دار السرور، بدون تاريخ، وبغية الإيضاح ٦٣/٣

(٤) سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم صـ ٨١

(٥) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤)م، ٢٤٠/٢٨

ولقد أتبع هذه الصورة بصورة ترتبط بها في المعنى، وتتفق مع صورة الإخلاص التي رسمها في الحكمة السابقة، وتشكلت الصورة الثانية من الاستعارة في الحكمة الحادية عشرة ، حيث يقول: " ادفن وجودك في أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه"(١).وفي هذه الصورة يتحدث عن خمول النفس الذي هو من علامات الإخلاصومضامينه، وهناجاءت الصورة مخالفة للصورة الأولى في نوعها ، وإن كانت متفقة معها في مضمونها ، فالصورة هنا من الاستعارة ، وليست من التشبيه ، وقد تشكلت من هذا الفن لأنه أدق في التعبير عن معنى الخمول الذي هو سقوط للمنزلة عند الناس ، وعدم السعي إلى الشهرة، ومن سمات الصورة هنا : أن أجزاءها من صميم البيئة ، فالنفس هنا مثلها مثل الزرع الذي يوضع في باطن الأرض ويستنبت ليتم نتاجه وتزهو ثمرته ، وينتفع بها الناس، فلا تتم ثمرته ، ولا يكتمل نماؤه ، وتقوى جذوره إلا إذا دفن في باطن الأرض، وهذا هو المشاهد في واقع الحياة ، فما لم يدفن من الزرع لا يكتمل نماؤه ، ولا يخرج نتاجه حتى ولو ظهر نوره ، وكذلك حال النفس تحتاج إلى أ ن تخفى معالمها ، وتمحى صفاتها ، وتبتعد عن طلب الجاه والشهرة والمنزلة عند الناس حتى يكتمل لها إخلاصها. فالأرض غطاء وستر للزرع لينمو ويخرج نتاجه، والخمول ستر للنفس ليكتمل لها إخلاصها وصلاحها، وثمرتها هي الحكم والمواهب التي يجتنيها العبد من معرفة الله (عز وجل).والخمول هنا هو الأرض التي ستدفن فيها النبتة أي النفس وعملها، والصورة هنا من سماتها أيضاً: الوضوح والدقة، والتلاؤم والتلاحم بين أجزائها ، وقد كشفت عن هذا الأمر المعنوي الذي يتصل بالخمول وإخلاص النفس ، في صورة مشاهدة تقطر حسناً وروعة ، مع الإيجاز في التعبير عن المعنى .فالبنية العميقة للصورة هي تصوير للنفس في حال إخلاصها وخمولها، وكيف أن الخمول هو الطريق لاكتمال صلاحها في طريقها إلى الله (عز وجل).

(١) شرح الحكمة في شرح النفزي مع الشرقاوي ١٣/١، وشرح زروق صـ ٣٦، وشرح ابن عجيبة صـ ٥١،٥٢، والسندي المدني، محمد حياة، شرح الحكمالعطائية، بيروت، ط مكتبة المعارف، ط ١، (١٤٣١)هـ(٢٠١٠) ، تحقيق: نزار حمادي ، صـ ٢٢ ، والشرنوبي ، عبد المجيد ، شرح الحكم العطائية ، بيروت ، ط دار ابن كثير ، ط ٢ ، (١٤١٠)هـ(١٩٨٩)م ، تعليق :عبد الفتاح البزم ، صـ ٢٤، والبوطي ، محمد سعيد ، الحكم العطائية شرح وتحليل ، دمشق ، ط دار الفكر ، (١٤٢٤)هـ(٢٠٠٣)م ،١٤٩/١-١٦٦

واستعارة الخمول للأرض، والنبات للنفس من الاستعارة المكنية التي تتميز بأن قرينتها تخييلية، وهي الأنسب هنا لصورة الخمول وصورة النفس. فهي استعارة خيالية وهمية (١)وطالما لجأ الشعراء والمبدعون إلى الاستعارة المكنية ليعبروا من خلالها عن صورهم الخيالية التي يريدون أن يشاركوا الناس فيها، ويعبروا من خلالها عن أفكارهم، فهي من ألوان التصوير التي تعبر عن الانزياحات والانحرافات غير المألوفة في الفكر والعاطفة عند الشعراء والكتاب قديماً وحديثاً لما لها من بعد وهمي وخيالي.

ويمضي ابن عطاء في صوره الكاشفة للنفس وأحوالها ودقائقها وخباياها ليدلف إلى الحكمة الثانية عشرة، والتي تتصل بإصلاح النفس وتخليصها من الانشغال بغير الإخلاص، فيقول: "**مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ** " (٢). ولما كان التخلص من دقائق الرياء وخداع النفس لا يكون بغير الفكرة، والفكرة لا تكون إلا بالعزلة جاء بهذه الحكمة عقيب الحكمة السابقة ومراده هنا أن الذي ينفع القلب في وصوله إلى الله (عز وجل) هو اعتزاله للناس،ولا يتم ذلك إلا بمساعدة القالَب،فينعزل قلباً وقالَباً عن الناس. وهنا يصفوفكره، وتسمو روحه. والصورة البيانية هنا في قوله: " ... **يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ** " فالميدان بالفتح والكسر هو مجال الخيل ولقد شبه هنا الفكرة التي ترد وتتردد في مجاريها على المتجه إلى الله بتردد الخيل في مجالها وميادينها.وهو صورة استعار فيها مجال الخيل لتردد الأفكار، فتردد الأفكار وتنوعها في النفس كتردد الخيل في مضاميرها ومجالاتها. وما أروع تعبيره عن الفكرة بـ " الميدان "،ففي هذه الصورة الرائعة إشارة إلى تنوع الأفكار، واتساع ميادينها خاصة مع العزلة والإقبال بالكلية على الله (عز وجل).

(١)وقد يسمون الاستعارة بالكناية " التشبيه المضمر " لأن التشبيه يضمر في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه، ويدل على ذلك التشبيه المضمر في النفس بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر متحقق حساً أو عقلاً، يطلق عليه اسم ذلك الأمر. فيسمى التشبيه المضمر في النفس"استعارة بالكناية " وسميت بذلك لأنه لم يُصرحبه، بل إنما دل عليه بذكر خواصه ولوازمه.وإثبات اللازم في الاستعارة المكنية يسمى " استعارة تخيلية " وهي قرينة المكنية، وسميت تخيلية لأن إثباته للمشبه خيَّل اتحاده مع المشبه به فذلك اللازم حقيقة أي مستعمل فيما وضع له.الإيضاح ١٣٢/٣، ١٣٣، و العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغية وعلوم حقائق الإعجاز، ط مكتبة المقتطف، القاهرة، (١٣٣٣)هـ،٢٣٢/١

(٢) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٦/١، ١٧، وشرح زروق صـ ٣٧، ٣٨، وشرح ابن عجيبة صـ ٥٧ وما بعدها، وشرح السندي المدني صـ ٢٢، وشرح الشرنوبي صـ ٢٥، وشرح البوطي ١٦٧/١ - ١٧٨

فهناك فكرة يسبح فيها المرء في عالم الملكوت وهو يتأمل في جلال الله سبحانه وما أنعم به عليه من نعم لا تحصى وهناك فكرة في النفس وشهواتها، وهناك أفكار أخرى تتسع مجالاتها، ويمضى فيها المرء ولا يصل إلى غاياتها. فيكون المعتزل بذلك قوله ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عِبَرَاً. ومن هنا كان التعبير عن الفكرة بـ " الميدان " مناسباً للمعنى أتم مناسبة، وكانت الصورة ملائمة للمقصود أتم ملاءمة، وكما أن الخيل تتردد في الميدان ذهاباً وإياباً فكذلك الأفكار النافعة تتلاحق وتتابع على صاحب العزلة المنفرد بقلبه وقالبه عن الناس، وتتلاحق في قلبه أنوار الهداية والرشاد، وكلما فرَّغ المرء قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأسرار (١) . فالسعة أمر مشترك بين الأفكار والميادين، والتردد والتكرار أمر مشترك بينهما " فلا شئ أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة؛ لأن العزلة كالحمية،والفكرة كالدواء. فلا ينفع الدواء من غير حمية، ولا فائدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيها، ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها؛ إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب،والمقصود من التفرغ جولان القلب واشتغال الفكرة،والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العمل وتمكنه من القلب.ومن سمات الصورة هنا: التلاؤم والمناسبة بين أطرافها، وانسجامها مع الأمر المعنوي المراد منها، وهي في بنيتها العميقة توضح مدى تأثير العزلة في إصلاح القلب والفكر، وإقباله على الله، وقد أجاد ابن عطاء هنا في تشكيل المعنى بالاستعارة المكنية كما في الحكمة السابقة؛ وذلك نظراً للتلاؤم والارتباط بين المعاني في الصورتين.ومما زاد الصورة هنا المعنى جمالاً وقيمة أن تشكلت بالسجع المطرف(٢)الذي جمع الفقرتين على حد واحد من النغم والتناسب، فزاد هنا رقة وبهاءً؛ حيث جاء لإتمام المعنى.

ولم يقف ابن عطاء عند هذا الحد بل جاء بالحكمة التالية كالتوجيه للحكمة التي قبلها؛ لأن العزلة المصحوبة بالفكرة لا ينشغل فيها القلب بغير الله والالتجاء إليه، فأراد أن يبين ضد

(١) كما قال في الحكمة السادسة بعد المائتين:" فرغ قلبك من الأغيار، تملأه بالمعارف والأسرار"، ولقد تحدث عن بداية هذه الفكرة فقال في الحكمة مائتين وست عشرة: " الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار "، كما أشار إلى أهمية الفكرة في الحكمة التي تليها فقال" الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له "، وفي الحكمة الأخيرة يقول " الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى: لأرباب الاعتبار، والثانية: لأرباب الشهود والاستبصار ".

(٢) والسجع المطرف أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو في بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية. وسمي بهذا الاسم لبلوغه طرف الحسن ونهايته بالنسبة لغيره. خزانة الأدب ٤١١/٢، وبغية الإيضاح ٨٢/٤

هذه الحال بقوله في الحكمة الثالثة عشرة: " **كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟** " (١). وهذه الحكمة مفعمة بالصور البيانية في أكثر من موضع: في قوله: " **كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ؟**"وفي قوله: "**أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ** ؟ "وفي قوله: " **أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْيَتَطهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ** ؟ " فالصورة الأولى في قوله: " **كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟** " تشير إلى أن القلب الذي يميل إلى الدنيا وشهواتها وملاذها، ويتعلق بالناس، وينحصر في الملاذ الحسية،ويتبع هواه لا تتفتح له أبواب الهدى،ولا تشرق على قلبه أنوار الهداية،ولا يرى إلا شهوات الدنيا وملاذها ؛ وذلك لأن حب الدنيا والميل إليها قد انطبع فيه . وما أروع تعبيره هنا بقوله: " ... **صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ؟** " إشارة إلى تمكن حب الدنيا وملاذها وشهواتها من القلب بحيث تنطمس البصيرة، وتستحكم الغفلة. فالتعبير بـ " **الطبع** " هنا مما صور هذا المعنى أدق تصوير؛ فالطبع للشيء يطلق على " تصويره في صورة ما، يقال: طبع الله الخلق: أنشأه: (٢). فالطبع يتضمن انطباع الصورة،ويتضمن الختم والانغلاق معاً،فمقصوده من الانطباع في مرآة القلب: ارتسامها فيه على وجه لا يقبل غيرها. وهو هنا مما ناسب الصورة والمعنى أتم المناسبة؛ ولذلك ذكر قبله " **صُوَرَ الأَكْوَانِ**" مع الإضافة ليشير إلى هذا المعنى،ومما زاد هذه الصورة جمالاً أنه استعار " **المرآة** " هنا للبصيرة. فالمرآة: آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها،فكلما قوي صقلها قوي ظهور ما يقابلها فيها . واستعيرت هنا للبصيرة التي هي عين القلب التي تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها. فالمرآة الصقيلة تظهر الإنسان على ما هو عليه بما فيه من محاسن ومساوئ حسية، وينطبع فيها ما يظهر ويتجلى أمامها من الأمور الحسية، وكذلك القلب يستقر في عينه ما أشربه من طاعة لله وإقبال عليه،أو حب للدنيا، وإدبار عن الآخرة، فالقلب كالمرآة فكما أن المرآة ينطبع

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي١٨/١، ١٩، وشرح زروق صـ ٣٨، ٤٠، وشرح ابن عجيبة صـ ٦٣ – ٦٦، وشرح الشرنوبي صـ ٢٦، ٢٧

(٢) ينظر المعجم الوسيط ٥٤٩/٢ ، ٥٥٠

فيها الصور على ما هي عليها، كذلك القلب ترتتسم فيه الشهوات التي ينشغل بها وتبصرها عينه.

والصورة الثانية – فيما يبدو لي – هيكالنتيجة للصورة الأولى، فالقلب الذي ارتسمت فيه الشهوات، وامتلأ بالغفلات، وانطفأ نور بصيرته قد صار حاله كما في قوله: " **أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟**" فالرحيل: هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن، وعبر به هنا للانتقال من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب، أو من وطن الغفلة إلى وطن اليقظة،أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله... وإذا كان الرحيل يتطلب الإطلاق وعدم التكبيل فلا رحيل مع التكبيل، وهو ما عبر به هنا عن تعلق القلب بالشهوات التي تمنعه من النهوض إلى الله (عز وجل) لاشتغاله بالالتفات إليها. وما أروع تصوير هذه الحال بصورة المكبل! فلما كان المكبل لا يستطيع السير لتقييد حركته كان الغارق في الشهوات قلبه ممنوعاً عن الوصول إلى الله (عز وجل)، فهو محبوس في هوى نفسه مقيد بشهواتها، فكما أن المقيد لا يمكنه السير والحركة فكذلك الأسير لشهواته لا يمكنه الوصول إلى مرضاة الله.ثم أضاف إلى هذه الصورة صورة أخرى بقوله: " **أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ؟** " فالدخول في طريق الله يتطلب الطهارة، أي طهارة القلب، وصاحب الغفلة قلبه متعلق بالدنيا وهواه وشهواته، غارق في غفلاته،وهي الحالة التي شبهها بالجنابة.فلما كانت الجنابة مانعة من دخول الأماكن الطاهرة كالمساجد فكذلك القلب الغافل اللاهي الغارق في ملذات الدنيا لا دخول له في طريق السالكين إلى الحق (عز وجل) . والتعبير عن الغفلة هنا بـ " الجنابة " تعبير دقيق، فلم يعبر مثلاً بما هو أقل منها من أنواع الحدث الأخرى ...، وذلك – فيما يبدو لي – لأن الأمر يتصل بـ " القلب " وهو " **المُضْغَةُ التِي إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ،وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ** " كما صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير . فالجنابة من الحدث الأكبر المانع من دخول الأماكن الطاهرة، أما مع الحدث الأصغر فيجوز له أن يدخل إلى الأماكن الطاهرة، لكن مع الجنابة فلا، وكذلك معاصي الجوارح مع التوبة والاستغفار ضررها أقل في دين المرء من ضرر معاصي القلوب التي تستقر في أصل موطن الإيمان ومنتهاه، وهي أسرع في إفساد دين المرء من غيرها من المعاصي الأخرى. والشيخ هنا قد أتى بهذه الصور

الثلاث على الترتيب مبتدئاً بالصورة الأولى، ثم بالصورتين التاليتين على سبيل التنويع والتلوين، والتفنن في التصوير!ونلمح هنا أنه قد ابتدأ كل صورة من الصور بالاستفهام التعجبي على سبيل الإنكار والنفي على صاحب تلك الحال، وقد انضم إلى الاستفهام في هذه الصور السابقة السجع الذي أعطى هذه الحكمة نغماً ولذة في الأسماع؛ ولجأ إلى السجع هنا لتكتمل معالم الصورة لفظاً ومعنى.

ومن سمات الصورة : تعدد أنماطها وأشكالها، واجتماع أكثر من لون من ألوان التصوير فيها، فالأولى من الاستعارة التصريحية (١)التي صور فيها القلب وبصيرته بالمرآة ، والثانية من التصريحية والمكنية؛ حيث صور من يطيع الله ويسير إلى مرضاته بمن ينتقل ويرحل من مكان إلى مكان، كما صور فيها الشهوات بصورة القيد الحسي الذي يمنع حركة صاحبه ، أما عن الصورة الأخيرة فقد جاءت من التشبيه البليغ(٢) الذي أضاف فيه المشبه إلى المشبه به لبيان شدة الارتباط بين هذا الغافل وغفلته التي شبهها بالجنابة ، ولقد جاءت الإضافة في كل الصور التي جاءت في هذه الحكمة لتفيد مدى التلازم والارتباط بين كل حال وما جاء في صورتها .والصورة في بنيتها العميقة تتميز بالتفنن والتلوين في المعنى، وتصور كل هذه الأمور المعنوية من طهارة القلب وإقباله على الله، والبعد عن المعاصي، وفهم أسرار الله... بصورة حسية من واقع الحياة ليقرب المعنى لنفس السامع، كما تبين هنا خطر الغفلة وأثرها في إفساد القلب، والقعود بصاحبها عن العمل للآخرة. كما نلمح هنا التركيب في الصورة وأثره في بيان المعنى، فالصورة كلما ازدادت تركيباً، وتشكلت من عدة أمور كلما ازداد جمالها، وزادت متعة الفكر بيها، وزاد عمل العقل في تأملها، والنظر في وجوه الارتباط بين أجزائها، وهو ما سنلحظه دائماً في الصورة البيانية عند ابن عطاء الله.ومن خصائص البنية العميقة في هذه الحكمة: عدم اعتمادها على التصوير وحده كوسيلة لبيان المعنى، بل ضم إليه الاستفهام ليكمل صورة الإنكار والتعجب والنفي في

(١) عرفت الاستعارة بتعاريف كثيرة عبر تاريخها الطويل والتعريف الذي اشتهر عند المتأخرين من البيانيين أنها: " استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي. علم البيان، دراسة تحليلية لمسائل البيان صـ ٨٢ باختصار، الاستعارة نشأتها وتطورها للأستاذ الدكتور / محمود شيخون صـ ٧٢، ٧٤

(٢) سبقت الإشارة إلى بعض أسرار الجمال في التشبيه البليغ في الحكمة العاشرة.

المعنى، كما ضم إليه السجع، وهو من السجع المعتدل الذي طالت فيه الفقرة الثالثة عن الثانية والأولى لأجل امتداد المعنى والصورة لا لمجرد الحلية الفظية والنغم، بل لامتداد الغفلة التي تحدث عنها في هذه الصورة.

ولننتقل إلى صورة أخرى من الصور اللافتة في حكمه التي تحدث فيها عن الرحيل إلى الله (عز وجل) ، وهي متصلة بالصورة التي قبلها، وهي الحكمة الثانية والأربعون حيث يقول: " **لا تَرْحلْ مِنْ كَوْنٍ إِلى كَوْنٍ فَتكونُ كَحِمارِ الرَّحَى يَسيرُ والمَكانُ الَّذِى ارتَحَلَ إِلَيهِ هُوَ الَّذِي ارتَحلَ مِنْهُ، ولَكِنْ ارْحَلْ مِنْ الأَكْوَانِ إِلى المُكَوِّنِ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾**[النجم: ٤٢]**وانظر قوله صلى الله عليه وسلم:" ... فَمنْ كَانتْ هِجرَتُهُ إِلى اللهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ ورَسُوُلِهِ،ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى دُنْيَا يُصيبُها، أَو امْرَأَةٍ يَتَزَوُّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ" (١) فَافْهَمْ قَوْلَهَ عَلَيْهِ الصَلاةُ والسَّلامُ،وتَأَمَّلْ هَذَا الأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ... والسَّلامُ** " (٢). والشيخ في هذه الحكمة الرائعة ناظر إلى المثل القرآني في قوله تعالى : ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الجمعة: ٥]فالمثل القرآني هنا لليهود في حملهم للتوراة، وقراءتهم، وحفظهم لما فيها،ثم إنهم غير عاملين بها،ولا منتفعين بآياتها، مثلهم كالحمار يحمل أسفاراً، أي كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب. وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل مثلاً ﴿**... مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...**﴾(٣). فأخذ الشيخ من هذا التمثيل القرآني المشبه به، وهو " الحمار " وحده دون سائر الصورة المركبة في المشبه به من حمله كتب العلم الكبيرة النافعة، مع عدم علمه وعمله بما فيها، أخذ الشيخ ما سبق، ووظف الصورة توظيفاً آخر بتركيب آخر وفُق فيه كل التوفيق فيما يبدو لي. وجاء تصويره نابعاً من البيئة، واضحاً كل الوضوح، ومبيناً للمقصود أتم بيان.فالشيخ في هذه الحكمة يشير

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، وأوله " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لامريء ما نوى ... " الحديث وراجع تخريجه، والتعليق عليه في مشكاة المصابيح بشرح الطيبى ح (١) ٧٤/١،ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، (١٤٢٢) هـ (٢٠٠١) م

(٢) شرح النفزي مع الشرقاوي ١/ ٣٩، وشرح زروق صـــ ٨٢، وشرح ابن عجيبة ص ١٢٧، وشرح السندي المدني صـــ ٣٦، ٣٧، وشرح الأحسائي سراج الظلم صـــ ٨٤، وشرح الشرنوبي ص ٥١، ٥٢

(٣) ينظر الكشاف ٥٣١/٤، وأسرار البلاغة ص ٨١، وما بعدها، والجمان في تشبيهات القرآن ص ٣٨٥، ٣٨٦.

إلى من يعمل على غير إخلاص ليراه الناس،أو لأجل طلب المنزلة عندهم،أو يزهد في الدنيا ليعرف بذلك،وتعلو منزلته، وينتشر ذكره بين الناس، فهو عامل على طلب الجزاء من الخلق، أو نيل المنزلة عندهم، وكل هذا وغيره قادح في إخلاص العمل لله (عز وجل) . وهذا ما قصده الشيخ بـ " **الرَّحِيلِمِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ** ... " فهو هنا قد رحل من حظ نفسه إلى حظ آخر من حظوظ النفس، وهو طلب الذكر والشرف عند الناس، فرحيله بذلك من " **كون إلى كون** "،وعودته إلى المكان الذي بدأ منه، ومن هنا مثَّل له بـ " **حمار الرحى** " الذي يسير بالليل والنهار، وهو في موضعه الذي ارتحل منه. فالصورة بتركيبها كالتالي: صورةمن يعمل ليراه الناس أو لأجل حظ من حظوظ الدنيا الفانية كصورة الحمار الذي علق في الطاحونة " **الرحى** " وهو يسير سيراً دائماً،وهو في موضعه قائم، والمكان الذي انتقل عنه هو المكان الذي رجع إليه. فكل منهما قد أتعب نفسه بغير فائدة مع نقصان حاله، وفساد أمره، وعدم انتفاعه بعمله وسعيه. والتشبيه بـ "**الحمار**" هنا دليل على البلادة،وقلة الفهم،والتمثيل به مع إضافته إلى الرحى "**حمار الرحى**" مبالغة في تقبيح حال العاملين لأجل رؤية الناس، أو لحظ من حظوظ الدنيا الفانية. فهذا الصنف من الناس لو فهم عن الله (عز وجل) لرحل عن حظوظ نفسه وهواه قاصداً إلى الوصول إلى حضرة مولاه. وتأمل هنا في التعبير عن التوجه إلى الله بـ " **الرحيل** "، وكيف ربط الشيخ بين أجزاء هذه الصورة الرائعة وبين الآية التي اقتبسها من سورة " النجم ": ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ**﴾، ثم ما نقله بعد ذلك من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الهجرة إلى الله ورسوله . كل ذلك أفرغه الشيخ في الصورة إفراغاً واحداً أكمل معالم الصورة، وربط بين أجزائها ربطاً محكماً بحيث صار كل جزء من الصورة مكملاً للغرض. فالتعبير بـ " **الرحيل** " هنا تعبير دقيق؛ لأن المؤمن سالك إلى الله (عز وجل) راحل عن الدنيا وتارك لها ، فحاله مع الدنيا كحال المسافر الذي سينتقل عما قريب من المكان الذي أقام فيه، فلا ثبات له ولا قرار؛ لأن الدنيا وحظوظها مرحلة من مراحل الطريق في السير إلى الله (عز وجل) ، وعلى المؤمن أن يجتازها

ويتخطاها في سيره إلى الحق سبحانه، فلا تكن هدفاً في ذاتها (١).كما أن التعبير بـ "**الرحيل**" فيه إشارة إلى المشقة التي تعترض طريق السالك إلى الله، وأن هناك عقبات في طريق المخلصين من حظوظ النفس والدنيا، والناس... وعليهم أن يجتازوها ويتجاوزوها؛ لأن المسافر المخلص لله سيجد في النهاية بغيته من سفره بعد المشقة والتعب، وكذلك السائر إلى الله سيصل إلى حبه ورضوانه ﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** ﴾ . ومن هنا اقتبس الآية في آخر الصورة إكمالاً لمعالمها، ولبيان أن السائر إلى الله المخلص له واصل لا محالة إلى رضوانه وحبه. واقتبس الشيخ هنا أيضاً من حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) في إخلاص النية من أول قوله: "... **فَمَنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورَسُوُلِهِ** ... " وهو معنى الارتحال من الأكوان إلى ٱلمكَوِّنِ، وهو المطلوب من العبد، وهو مصرح به غاية التصريح ، وقوله : " ... **فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِليهِ** " هُوَ البقاء مع الأكوان، والتنقل فيها ، وهو الذي نهى عنه ، وهو مشار به غير مصرح (٢) " . فمن قصد بهجرته وجه الله (عز وجل) وقع أجره على الله،ومن قصد بها دنيا أو امراة فهي حظه ولا نصيب له في الآخرة "(٣) . ومن اللافت في هذه الصورة الرائعة أن الشيخ قد ختمها بالسلام " لأن المسألة قد أخذت به حقها أمراً، ونهياً، وخبراً،وبرهاناً، ودليلاً شرعياً، ومثلاً مضروباً، وأصلاً، وفرعاً، وقرآناً، وسنة، واعتباراً إلى غير ذلك، أو ختمها بالسلام لما اشتملت عليه من الرحيل والمقام، فكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الحق، فناسب ختمها بالسلام لما فيه من ذكر السلامة "(٤). والشيخ هنا حريص على دقة التركيب، وحسن الترتيب في أجزاء الصورة، وكلاهما من الأهمية والبلاغة بمكان كبير، كما نبه على ذلك علماء البيان عند الحديث عن التشبيه

(١) ولقد جاءت هذه الصورة في أكثر من حديث ... من ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: " **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** " الحديث رواه أحمد والبخاري وابن ماجة من حديث ابن عمر. فشبه الناسك السالك أولاً بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا سكنيسليه، ثم ترقى وأضرب عنه بقوله: " **أو عابر سبيل** " لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربة ويقيم فيها بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع وبينه وبينها أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وهو بمرصد من قطاع طريقه، فهل له أن يقيم لحظة، أو يسكن لمحة؟ لا. كذلك في حديث: " **ما لي والدنيا؟ وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها** " الحديث رواه أحمد والترمذي وابن ماجة من حديث ابن مسعود. وهذا الحديث من التشبيه التمثيلي، ووجه الشبه: سرعة الوصول، وقلة المكث؛ ومن ثم خص الراكب. ينظر المشكاة ح (١٦٠٤)، ح (٥١٨٨)، وشرح الطيبي على المشكاة ٣٤١/٣ ، ٣٥١/٩

(٢) شرح النفزي على الحكم ٣٨/١

(٣) شرح الطيبي على المشكاة ٧٥/١

(٤)شرح زروق صـــ ٨٢، وشرح ابن عجيبة على الحكم ص ١٢٧

المركب، والفرق بينه وبين المتعدد، وهل يجوز فض التركيب في الأول وجعله متعدداً؟ إلخ. " وعلماء البيان أشد حرصاً على اعتبار تشبيه الهيئة فلا يعدلون عنه مهما استقام اعتباره، فهو أوقع في النفوس، وأجلى للمعاني "(١).والصورة في بنيتها العميقة معبرة عن معنى عدم الانتفاع بالسعي بعد الكد والتعب، فلا هو استراح، ولا هو قطع المسافة التي يريد. وكونها مركبة مما أكسبها قوة ووضوحاً وتكاثفاً في المعنى، فهذا التكاثف والتشابك في أجزاء الصورة من سمات الجمال فيها. والصورة هنا من التمثيل(٢) المركب الذي يحتاج إلى إعمال الذهن لبيان أجزاء الصورة ، ولجأ الشيخ إليه لأهمية هذه الصورة وماينطوي في حناياها من معنى يتصل بالإخلاص في التوجه إلى الله عز وجل ، ولتقبيح حال العاملين لأجل الدنيا أو الناس ليلزموا الأدب مع الله، ويخلصوا في الإقبال عليه وحده، ويتحققوا بقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ**﴾ .ومما زان هذه الصورة جمالاً ما توشحت به من جميل الاقتباس من القرآن والسنة ليكتمل معناها، وتبدو حجتها واضحة بدليلها؛ ولذلك غلب على الصورة هنا التكاثف والتركيب، كذلك أسلوب الأمر الذي تكرر في أكثر من موضع منها للتنبيه والإرشاد والنصح. ومن سمات الصورة هنا: "الدقة في التشبيه، وانطباق المثال على الواقع الممثل له دون اختلاف"(٣).**ويمضي الشيخ ليبين العقبات التي تعترض طريق السالكين ليبرزها في أروع صور كاشفة عن مغزاها ومعناها، ومن ذلك ما ذكره في الحكمة الرابعة والخمسين بعد المائة حيث يقول:** " **ربما وقفتْ القُلوبُ معَ الأَنْوَارِ، كَما حُجِبَتْ النُّفُوسُ بِكَثَائفِ الأَغْيَارِ**" (٤). وهذه الصورة **التشبيهية** يهدف الشيخ من ورائها إلى بيان أن السالكين إلى الله (عز وجل) يعترضهم في طريق سلوكهم عقبات وصعاب منها ما هو ظاهر جلي ،ومنها ما هو دقيق خفي، وهذه العقبات والصعاب إنما تعترض طريق القلب لأنه أساس الصلاح والتوجه إلى الله (عز وجل)، وذلك لتمنعه من الوصول إلى مرضاة رب العالمين

(١) التحرير والتنوير ٢٤٢/١ – ٢٤٤،ط دار سحنون، تونس (١٩٩٧) م.
(٢) ولقد بين الإمام عبد القاهر في كتابه " أسرار البلاغة " أسباب تأثير " التمثيل " الذي هو أخص من التشبيه، فكان مما قال: " فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ..." أسرار البلاغة صـ ١٢١ باختصار، ط دار المدني بجدة (١٤١٢) هـ (١٩١٩) م.
(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل ١٤٥/٢
(٤) شرح النفزي مع الشرقاوي ١١٣/١، وشرح زروق صـــ ١٨٧، وشرح ابن عجيبة صـــ ٣٥١، ٣٥٢، وشرح السندي المدني صـــ ٧٩، وشرح الشرنوبي صـــ ١١٤

، ولقد عبر عن هذه المقامات التي تقف القلوب عندها بـ " **الأنوار** " وهو تعبير دقيق حيث إنه يقصد بـ " **الأنوار** " التي تقف القلوب عندها العلوم، والمعارف، والمقامات التي تتكشف للسائرين إلى الله (عز وجل) في طريقهم .

فقد تتحول هذه الأنوار إلى غاية في ذاتها بدلاً من أن تكون وسيلة إلى غاية أكبر،وهي الوصول إلى رضوان الله،أو يقف القلب والعقل عندها دون أن يتطلع العبد إلى المقامات الأسمى والأعلى. ومن هنا تتحول هذه المقامات، والعلوم، والمعارف إلى حجاب من الحجب يمنع السالك من الوصول بدلاً من أن تكون زاداً يساعده على الوصول. والتعبير بـ " الأنوار " هنا مما يناسب الصورة التشبيهية تمام المناسبة، وينسجم معها تمام الانسجام؛ لأنه قد جرت العادة أن يشبه " الهدى والعلم والصلاح " بـ" النور "،وأن يشبه "الضلال، والجهل، والفساد" بـ" الظلمات " ، وذلك ما جرى عليه التصوير القرآني في مواضع كثيرةٍ (١) . فلما كانت هذه العلوم والمعارف مبينة للحق كاشفة له شبهت بـ " النور " الذي يضئ الطريق للسالك فيسير على هدى دون أن تعثر قدمه أو تزل.ولقد شبه الشيخ هذه الحجب النورانية بـ " حجب النفوس بالأغيار " التي يقصد بها هنا ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها، والشهوات والعادات الإنسانية، وهي التي أشار إليها الحق (عز وجل) في كتابه العزيز بقوله :﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤] . ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه، والرياسة، وحب المدح ، والتعظيم ، وغير ذلك من شهواتها وعوائدها وهي التي حجبت جل الناس وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس .

---

(١) ومن ذلك: قوله تعالى:(**الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ**)[إبراهيم: ١] وفي ذلك يقول الرماني : " كل ما جاء في القرآن من ذكر " من الظلمات إلى النور " فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم " اهـ . وهو ما أشار إليه أيضاً الشريف الرضي وهو بصدد بيان المجاز في قوله تعالى:(**ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ**)[البقرة : ٢٥٧] حيث يقول : " وهذه استعارة ، والمراد بها إخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم . وكل ما في القرآن من ذكر الإخراج من " الظلمات إلى النور " فالمراد به ما ذكرنا، وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضلالقاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الحائر؛ لأن عاقبة الإيمان مضيئة بالإيمان والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب. ينظر النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـ ٩٢، وتلخيص البيان فى مجازات القرآن ص ١٢١، والكشاف ٣٣٢/١

والتشبيه هنا تشبيه دقيق مبرز لأثر هذه الأنوار في حجب القلوب؛ لأن المشبه به مشارك للمشبه في الحجب عن الله تعالى، لكن حجب النفس بالأغيار أشد؛ لأنها ظلمة أشد حجاباً من النور، فالقلوب نورانية حجبت بالنور، والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة. ولكن الشيخ فى هذا التشبيه احترس(١) بـ "**ربما** " لأن هذه النتيجة ليست قاطعة، فربما انطلقت القلوب وتجاوزت هذه الأنوار كما لم تحجب النفوس بكثائف الاغيار،وهذا هو عكس لصورة التشبيه التي ذكرها الشيخ.

ومن جمال التشبيه في هذه الحكمة: التعبير بـ " **كثائف الأغيار** " في المشبه به، فالكثافة تفيد " الغلظة والكثرة في الشيء مع الالتفاف والتراكب " (٢) وهو ما يناسب هذه الشهوات الحسية على اختلافها وتنوعها،كما أن وصفها بالكثافة " لأنها لا تزول إلا بمعاناة ومشقة " (٣). ونلمح هنا أن الشيخ قد اقتبس في هذه الصورة التشبيهية من نور القرآن الكريم، وذلك فيما يتعلق بذكر " الأنوار "، فلقد جرى على عادة القرآن من تشبيه " الهدى والفلاح بالنور " وذلك مما أكسب هذه الحكمة دقةً وجمالاً، وهو تأكيد لما سبق بيانه في المقدمة من أن حكم الشيخ في حقيقتها ومنبعها قبس من هدي القرآن وأسلوبه .ومما زان الصور هنا أن تشكلت الحكمة من السجع المطرف، والذي أعطاها نغماً داخلياً، وتناسباً فيما بين كلماتها وجدنا فيه امتدادً للسجعة بما يتناسب مع المعنى. والصورة في بنيتها العميقة هنا تنبه إلى أهمية صفاء القلوب وإقبالها كلياً على الله، وعدم وقوفها عند أول ما يلوح لها من أنوار الهداية في توجهها حتى لا تتشغل عن الوصول إلى المقامات الأعلى، وهنا يبدو كيف أوجز الشيخ في عرض المعنى. ومن سمات الصورة هنا: الوضوح والبيان؛ لأنها كشفت عن حالة من يسير في طريق الله فهو على نور من ربه، فيكون حاله حين يقف مع الأنوار التي تبدو له في أول سلوكه كحال من حجبت نفسه بشهواتها وعاداتها. وهذا فيه إبراز لأمور معنوية في صورة محسوسة مشاهدة، وهو من سمات التصوير في الحكم.

---

(١) والاحتراس من أنواع الإطناب، ويسمى التكميل وهو: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه. وقد يأتي في وسط الكلام أو آخره. الإيضاح ١٢٥/٢

(٢) المعجم الوسيط صـ ٧٧٧

(٣) ينظر شرح الشرقاوي على الحكم ١١٢/١، ط مصطفى البابي الحلبي، ط الأخيرة، (١٣٥٨)هـ - (١٩٣٩)م، والخطيب النيدي، محمد خليل، كشف الغطاء شرح وترتيب حكم ابن عطاء، طنطا، ط مطبعة الشعراوي بطنطا، بدون تاريخ،صـ ٩٦

ومن هنا فالصالحون يتفاوتون فيما بينهم من مقامات، ويختلفون في الاستعداد والعمل بما يتلقون من علوم، وهو ما جسده الشيخ وصوره في الحكمة مائة وسبع وثمانين حيث يقول: " **العِباراتُ قُوتٌ لِعائِلةِ المُسْتَمِعِينَ ، وليسَ لَكَ إلَّا مَا أَنتَ آكِلٌ** " (١). وقد تشكلت الصورة هنا من التشبيه البليغ لتعبر عن هذه الفكرة؛ حيث أراد أن يبين أن السالكين إلى الله (عز وجل) يتفاوتون في المنازل والمقامات،وفي الفهم والإدراك للعلوم والمعارف. فكما أن قوت الأطفال وأكلهم غير أكل الكبار فكذلك أفهام الناس وإدراكهم للعلوم والمعارف يتفاوت حسب منازلهم، ودرجاتهم،واستعدادهم. وكما أن الآكل لا يستطيع أن يأكل إلا ما يناسبه ويناسب طبيعته واستعداده فكذلك السالك يأخذ من العلوم والمعارف على قدر فكره واستعداده. وما أروع تشبيهه للعبارات بـ " **القوت للعائلة** "! فالعائل: هو الفقير، والعائلة جمع له. وعبارات العارفين قوت لقلوب وفقراء الطالبين، وكما أن الآكل يأكل على قدر استعداده حتى يشبع بما يناسبه، فكذلك السالك يأخذ من عبارات العارف بما يتناسب مع فهمه واستعداده. فأكل الصغير لا يشبع الكبير، وأكل الكبير فوق طاقة الصغير، وكذلك كل سالك يأخذ بقدر علمه،وكما أن الصغير إذا أكل أكل الكبير غص في حلقه ووقف، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبع كذلك بعض العبارات قد تكون فتنة على بعض من لم يفهمها، أو يكون المقام فوق إمكانه واستعداده، فيكون ذلك وبالاً عليه بدلاً من أن يكون منفعة له . ومن سمات الصورة: الارتباط بين حال الجائع الفقير المحتاج، وحال السالك الطالب للهدى والرشاد. فكل منهما محتاج، هذا إلى قوت روحه وفكره وعقله وقلبه،وهذا إلى قوت بدنه وجسده. والتعبير بـ " **القوت** " هنا أيضا تعبير دقيق حيث يشير إلى شدة العوز والحاجة والفاقة. وفي هذا التشبيه بين الشيخ أثر العلم وأقوال العلماء ومواعظهم فيالسالكين، وتشبيه ذلك بحاجة الجائعين إلى الطعام، فكما أن الطعام قوام الأبدان،فالعلوم والمعارف قوام الأرواح. وفي هذا أدق بيان لأهمية العلم، ومراعاة أحوال طلابه، واختلاف قدراتهم واستعدادهم للتلقي. فالعلوم والمعارف هي الغذاء الروحى الحقيقي لأهل العلم، والجهل موت معنوي.وتأمل في هذه الإضافة التي جاءت في المشبه به في قوله : " **قُوتٌ لِعائِلةِ المُسْتَمِعِينَ** " فهذه الإضافة للبيان، أي هي

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٣٩/١، وشرح زروق صـ ٢١٩، وشرح ابن عجيبة صـ ٤٠٨، وشرح السندي المدني صـ ٩١، ٢٩

من حيث معناها قوت لأرواح العائلة وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم ،كما أن الطعمة الحسية قوت لأبدان المحتاجين ، وكما أن الأقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم ،كذلك الأقوات المعنوية التي تفهم من العبارات مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم ، فقد تلقى العبارة على جماعة فيفهم كل واحد منها ما لا يفهمه الأخر ،وقد يفهم بعضهم من الكلام الذي يسمعه معنى لا يقصده المتكلم ،ويتأثر باطنه بذلك تأثراً عجيباً، وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم به " (١). وهو ما عبر عنه الشيخ بقوله: " **وليسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنتَ آكلٌ** " وهذه الصورة التشبيهية الدقيقة قد صورت هذا المعنى أدق تصوير، ونقلته من المعقول إلى المحسوس في أحسن معرض، وأوضح بيان، ونبهت على قيمة المواعظ وأهميتها في حياة السالك، فلله در الشيخ!والصورة في بنيتها العميقة هنا تنبه إلى أن الاستعداد لتلقي العلوم والمعارف أمر يختلف فيه السالكون، وكل له من العبارات ما يناسب حاله، فحال المبتدئين يختلف عن حال السالكين، والأخير يختلف عن حال الواصلين. ومن سمات الصورة هنا: الدقة والشمول، ودقة الربط بين أجزائها، على ما فيها من التركيب في أجزائها، وهي من السمات العامة عند ابن عطاء في حكمه كما سبق. ودقتها وشمولها هنا أن جمعت في الوصف لأحوال الجائعين في الطعام واختلاف مشاربهم فيه، فكل له طعامه الذي يناسبه من كبير أو صغير، والأكل على قدر الطاقة وحسب الاستعداد، وهو ما يتناسب مع الحالة المشبهة من السلوك والاستعداد لتلقي العلم. ومما يلحظ هنا على التركيب أن ابن عطاء لم يتجه إلى السجع في تشكيل العبارة؛ وذلك يؤكد أن مجيء السجع في حكمه مرتبط بما يناسب المعنى وامتداده، وسيأتي الكلام عن تشكيل الحكم بالسجع وتموضعه الشكلي فيها.

ويمضي ابن عطاء بعد ذلك ليبين ما منحه الله لعباده من التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات فيقول مصوراً لذلك في الحكمة مائتين وخمس وأربعين: "**جَعَلَكَ فِي العَالَمِ المُتَوَسِّطِ بَينَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ**

(١) ينظر شرح الشرقاوي على الحكم ١٣٩/١

أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ ". في هذه الحكمة يشير إلى ما منحه الحق سبحانه للإنسان من ميزة تميز بها من سائر المخلوقات علويها وسفلها، فجعله بين عالم المُلك وهو عالم الشهادة والحِسِّ، وعالم الملكوت وهو عالم الغيب. وركب فيه بعض الخصائص من العالم الأول والثاني، ففيه من عالم الملك والحس الطبيعة البشرية الجثمانية، وما يدخل تحتها من شهوات الدنيا، وفيه من العالم الثاني الطبيعة الملائكية وما يدخل تحتها من رقي الروح وتجردها لله (عز وجل) . ففيه ما ليس في الملائكة من عالم الملك، وفيه ما ليس في سائر المخلوقات من عالم الملكوت. وقد يرقى في عالم الملكوت فيكون أفضل من بعض الملائكة، وقد يهبط وينحدر في عالم الملك فتكون بعض المخلوقات الأخرى أفضل منه حين ينغمس في الشهوات والأهواء الدنيا (١)،وقد جعله الله على هذه الطبيعة ليعلمه " **جَلَالَةَ قَدْرِهِ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ** "، وقد مهد بهذه العبارة الدقيقة الموجزة للصورة التالية في قوله: "**وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ**. والصورة التشبيهية هناكسابقتها، وقد راعى فيها الدقة في اختيار أجزاء الصورة المعبرة عن المعنى المقصود أدق تعبير." فالجوهرة: من جوهر الشيء: أي حقيقته وذاته. ومن الأحجار كل ما يستخرج منه شيء ينتفع به والنفيس الذي تتخذ منه الفصوص ونحوها(٢).وتصوير الإنسان هنا بـ " الجوهرة " مما يتناسب مع المعنى؛ لأن الإنسان من تكريم الله واستخلافه له بالمحل المعروف، وفي ذلك من الخصوصية والنفاسة ما فيه ... وكما أن الجواهر يستخرج منها ما ينتفع به من الأشياء النفيسة فضلاً عما فيها من اللمعان وحسن المنظر، فكذلك الإنسان فيه من مظاهر التكريم ما يدل على نفاسته، كحسن الصورة، والخلق في أحسن تقويم، وهذا مما يجمع معنى النفاسة ، كما أن الإنسان الصالح يخرج منه الخير والطاعة والبر فينتفع بذلك وينفع غيره من الناس، فيكون بذلك مشتركاً مع الجوهرة في المنفعة ، بل أفضل منها ، فالجوهرة نافعة لغيرها ولا منفعة لها في نفسها ، والإنسان الصالح نافع لنفسه ولغيره . ولكن يبقى بعد ذلك الجانب الآخر من الصورة في قوله :" **تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ** " وهي هنا متممة للصورة ، فلما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٩٠/٢، ١٩١، وشرح ابن عجيبة صـ ٥١٨، ٥١٩، وشرح السندي المدني صـ ١١٢، وشرح الشرنوبي ١٦٣

(٢) فكل حجر يستخرج منه شئ ينتفع به فهو جوهر. والجسم والجوهر بمعنى. والجوهر: هو الذات والماهية، والحقيقة كلها ألفاظ مترادفة. ينظر الكفوي، أبو البقاء، الكليات، ط مؤسسة الرسالة، ط أولى، (١٤١٢) هـ (١٩٩٢) م ، ص ٣٣٠ ، ٣٤٥ ،٣٤٦،والمعجم الوسيط ١٤٩/١

جميع الموجودات كانت الأكوان كلها باعتبار إحاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذي يحفظ الشيء ويصونه، وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التي تحويها الصدفة . " فأنت أيها الإنسان كالياقوتة في صدف. الأرض تقلك، والسماء تظلك، والجهات تكتنفك، والحيوانات تخدمك وتنفعك، والجمادات تدفع عنك، وأنت في وسط الجميع، فالأفلاك دائرة بك، والشمس والقمر منيران لما أنت فيه، فأنت جوهرة الصدف، ولباب الكون مداره عليك " (١) . ومن سمات الصورة هنا: التناسب والشمول للمعنى، مع الإيجاز والدقة في اختيار أجزائها.وقد ساعد على إكمال معالمها تقديم أداة التأكيدودخولها على ضمير المشبه " **أنك** " فأعطى كثافة للصورة، فنحن أمام جوهرة على الحقيقة، وزاد هذه الصورة بهاءً بأن ذكر " **الأصداف** " مع إضافتها إلى المكونات، فاكتملت بذلك معالم الصورة.كما تتسم الصورة أيضاً بالغرابة والجدة، والتشبيه البليغفيها من التشبيه الغريب البعيد، وليس المقصود هنا من البعد والغرابة عدم الظهور لأجل التعقيد (٢) بل المقصود هنا لطف المعنى ودقته. " والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع، أي البعيد لغرابته، ولأن الشئ إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى، وموقعه من النفس ألطف، وبالمسرة أولى " (٣). " فالغرابة موجبة للبلاغة، فكل ما كان غريباً كان بليغاً، إذ لا يخفى أن المعاني الغريبة أحسن وأبلغ من المعانى المبتذلة "(٤) ولذلك يقال: " الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب " (٥).ومما زان الصورة هنا أن تشكلت من السجع الذي منحها نغماً داخلياً، وقد جاء من السجع المعتدل الذي يناسب امتداد المعنى في الصورة. والبنية العميقة للصورة هنا بينت بأدق عبارة وأبين صورة منزلة الإنسان بين المخلوقات، وأنه من نفائس هذا الكون، وقد تميزت بالدقة والوضوح، وحسن الاختيار لأجزاء الصورة المنطبقة على هذا المعنى.

(١) ينظر شرح ابن عجيبة على الحكم صـ ٤١٣ ، ٤١٤، ط المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.
(٢) لأن التعقيد له سببان: الأول: سوء ترتيب الألفاظ. والثاني: الاختلال في الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو المراد من اللفظ. فالخفاء وعدم الظهور تارة ينشأ عن لطف المعنى ودقته، وهذا محقق للبلاغة، وهو المراد هنا، وتارة ينشأ عن سوء ترتيب الألفاظ وعن اختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى، وهذا هو المحقق للتعقيد المخل بالفصاحة. ينظر الإيضاح ٦٤/٣، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ٤٥٩/٣، ط دار السرور، بدون تاريخ.
(٣) الإيضاح ٦٣/٣.
(٤) حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٤٥٨/٣.
(٥) عروس الأفراح ٤٥٨/٣.

انتقل ابن عطاء بعد ذلك ليضرب مثلاً لنور الخصوصية مع ظلمة البشرية الحسية فقال في الحكمة تسع وأربعين ومائتين: " **لَا يَلْزَمْ مِنْ ثُبُوتِ الخُصُوصِيةِ عَدمُ وَصْفِ البَشَرِيَّة ، إِنَّمَا مَثَلُ الخُصُوصِيةِ كإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهارِ ظَهَرَتْ فَي الأُفُقِ وليستْ مِنْهُ . تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ، وتَارَةًيَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدَّكَ إِلَى حُدُودِكَ،فَالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ** " (١). وهنا يريد أن يبين أن الأوصاف البشرية التي هي من طبيعة الإنسان كالأكل والشرب، وما يحتاج إليه من لباس، ومسكن،وما فطره الله (عز وجل) عليه من حب للشهوات المباحة كالنكاح، ونحوه ... ، هذه الأوصاف البشرية الملازمة للعبد لزوماً ذاتياً،والتي لا تنفك عنه ويستحيل انعدامها منه لا تتعارض مع الخصوصية والقرب من الله سبحانه،والإقبال عليه، كما لا تتعارض مع منصب الولاية؛ لأن أهل الولاية والقرب من الله تنقلب أوصافهم البشرية وحظوظهم إلى كونها حقوقاً في تعاملهم مع الله بخلاف غيرهم ممن غلبت عليهم أنفسهم.وهذه الخصوصية محلها البواطن، ووصف البشرية محله الظواهر.ولكن حين تصفوالبواطن، وتتجرد لله (عز وجل) تتحول من النزعة البشرية إلى النزعة الروحية التي تظهر آثارها على الجوارح في الطاعة ،والعبادة ، والتجرد لله (عز وجل) .وهذه الخصوصية والصفاء الباطني لا تظهر آثارهما في كل الأحوال على السالكين إلى الله؛ حيث إنهما ليسا من ذاتية الطباع البشرية، بل هما طارئان عليها يظهران في بعض الأحيان، ويختفيان في بعض الأحيان؛ لأنهما ليس من طبيعة النفس، بل هما خارجان عنها. وهذا هو مضمون الصورة السابقة.أما تركيب الصورة فيدل على ذوق الشيخ،ورهافة حسه، ودقة فهمه، وإدراكه لأسرارالبيان. فهو هنا يشبه هذه الخصوصية والمنزلة التي تكون للسالكين إلى الله (عز وجل) يشبهها بشروق الشمس في النهار. ويشبه هذه النفس البشرية بالأفق الذي يتعاقب عليه الليل والنهار. فأوصاف النفس كالليلالمظلم، وهذه الأنوار التي يمنحها الله للسالكين كالنهار المشرق. وهذا الإشراق ليس منالفضاء، بل هو طاريء عليه، وهو قبل ظهور الشمس فيه مظلم. فما أروع هذه الصورة التي فككت تركيبها! وهي بتركيبها كالتالي: حيث مثل لنور الربوبية الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه،وستره بظهور البشرية بنور الشمس

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٩٢/٢، ١٩٣، وشرح زروق صـــ ٢٧٥، وشرح ابن عجيبة صـــ ٥٢٦، وشرح السندي المدني صـــ ١١٣، وشرح الشرنوبي صـــ ١٦٧، وشرح البوطي ٢٥١/٥

إذا أشرقت على الآفاق، وهو الفضاء الذي بين السماء والأرض. فالفضاء قبل ظهور الشمس مظلم لا نور فيه،فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نوراً صافياً، فنورانيته ليست من ذاته وإنما هي من الشمس، كذلك نور الربوبية هو مستودع في باطن البشرية، فإذا أراد الله أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته " ... فيكون الله سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ..."(١).

فالتمثيل للهداية والقرب من الله (عز وجل) وتوفيقه للعبد بشروق الشمس،أوبالنهار،أو بالنور،كل ذلك واقع في موقعه، ومعبر أدق تعبير عن المقصود.فلقد شاع كما سبق التمثيل للهدى والصلاح بالنور لما بينهما من المناسبة والتوافق.ونظرة أخرى إلى التفاته في هذه الصورة،كيف حول الحديث من التمثيل للخصوصية بشروق شمس النهار إلى الحديث عمن أشرقت على ليله شموس الهدى في قوله : " ... **تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ ، وتَارَةًيَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدَّكَ إِلَى حُدُودِكَ ، فَالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، ولَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ** " .وسر جمال الصورة هنا ليس من ناحية الجدة، فهي ليست جديدة، ولكن من ناحية التركيب، وحسن الانتقاء للعبارة عنها، وما فيها من كثافة الضياء الذي عبر به عن الهداية والرشاد .ويضاف إلى ذلك"الإيجاز " الذي عبر به عن أحوال مختلفة للنفس ما بين ظهور آثار الصلاح عليها وظهور آثار النفس والطبيعة البشرية فيها، وتقلبها بين أحوال مختلفة تارة وتارة. والبنية العميقة فيها تشير إلى أن اصطفاء الأولياء لا يتعارض مع وجود الصفات البشرية فيهم؛ لأن الخصوصية ليست ذاتية فيهم، ولكنها طارئة عليهم، أما الأوصاف البشرية فهي ذاتية لزومية للإنسان لا تنفك عنه، وقد راعى في هذه الصورة الهيئة والتركيب، وجاءت من تشبيه التمثيل لمناسبته لهذه الهيئة التي أراد التعبير عنها، وطالما كان التمثيل

(١) جزء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وأوله: " إن الله تعالى قال: **"من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه** " وراجع شرح الحديث في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب صـ ٤٣٤، ط الريان، ط أولى، (١٤٠٧) هـ (١٩٨٧) م .

أقوى في الدلالة على المعنى، وأبين في جلاء الصور(١).

وأكف عنان القلم هنا؛ حيث إن الحديث عن الصور وتشكيلها، وبنيتها العميقة عند ابن عطاء حديث ممتد، وقد انتخبت هذه الصور من حكمه(٢)، وراعيت فيها أن تكون متنوعة، مع بيان ما بينها من ترابط في المعنى، واختلاف في الصورة . وإذا استعملنا نظرية "**الحقول الدلالية** "(٣) للنظر في هذه الصور سواء ما ذكرته منها أو ما تركته واكتفيت بالإشارة إلى مواضعه لاتضح أنه دائماً ما يمثل للهداية، وللقلب المقبل على الله، وللعمل الصالح، والوصول إلى الله، وظهور أثار الله في خلقه، وللكشف، واليقين، والسرائر، وآثار القدرة، والفكرة في مخلوقات الله بالنور والإشراق، والشعاع (٤)، كما يمثل لشرور النفس، والمعصية، والضلال، والشهوات والغفلات بالظلام والكثافة، كما يعتمد على تصوير النفس وصفاتها بالصور والأجسام الكثيفة، والإخلاص والأعمال الصالحة بالأرواح لكون هذه الأصل والحقيقة، والأولى هي صور حسية فقط لا حقيقة لها ولا منفعة فيها بدون الروح.لكن حديثه على النور والإشراق يشهد حضوراً كثيفاً في الحكم مقارنة بالحديث عن الظلام، وهذا

(١) لأن التمثيل ضرب من التشبيه،فالتشبيه عام والتمثيل أخص منه،والتشبيه التمثيلي بما فيه من تركيب الصورة أكثر بلاغة، وأعمق أثراً في النفس، وأجلى للصورة، وأقوى في إثبات المعنى وترسيخه في الذهن. ولقد أشار عبد القاهر وغيره إلى أسباب قوة تأثير التمثيل مبيناً أن في كثير من التمثيل انتقالاً بالنفس من المعقول إلى المحسوس، وبما يدرك بالفكر والنظر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، وذلك يوجب لها أنساً بالمعنى وثقة به، واطمئناناً إليه ... وكثيراً ما يجمع التمثيل بين أمرين متنافرين مختلفين فتصيد الشبه للشيء من غير جنسه، واجتلابه من غير مظنته.ينظر للاستزادة أسرار البلاغة صـ ١٢١ وما بعدها، ودراسة تفصيلية لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير للأستاذ / عبد الهادي العدل صـ ٨١- ١١٥، ط دار الطباعة المحمدية، ط ثالثة، (١٣٧٨)هـ (١٩٥٨) م .

(٢) ينظر الحكم: (٣، ٢٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦٠، ٦١، ٦٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٣، ٢٠١، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٦٢).

(٣) الحقل الدلالي: هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها. وتقوم هذه النظرية على أنه لكي نفهم معنى الكلمة لابد من أن نفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلالياً، أو دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي. عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، القاهرة، ط عالم الكتب، ط٥، (١٩٩٨)م، صـ ٧٩، ٨٠

(٤) مثل قوله في الحكمة (١٤):" الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه ..."، والحكمة (٢٧) " من أشرقت بدايته – أشرقت نهايته"، والحكمة (٣١) " اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم..."، والحكمة (٣٦): "شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك" ، والحكمة (٥٥) " الأنوار مطايا القلوب والأسرار"، والحكمة (٥٦) " النور جند القلب، كما ان الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار"، والحكمة (٥٧) " النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والأدبار"، والحكمة (١٠٤)" أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وانار السرائر بأنوار أوصافه؛ لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر..."، والحكمة (١٥١) " مطالع الانوار – القلوب والأسرار "، والحكمة (١٥٢) " نور مستودع في القلوب – مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب"، والحكمة (١٥٣) " نور يكشف لك عن آثاره، ونور يكشف لك عن أوصافه "، والحكمة (١٥٥) " ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر؛ إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار، وأن ينادى عليها بالاشتهار" ، والحكمة (١٨٥) " ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار"، والحكمة (١٩٨) " ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك"، والحكمة (٢٠٤) " أنوار أذن لها في الوصول ، وأنوار أذن لها في الدخول"، والحكمة (٢٠٥) " ربما وردت عليك الانوار فوجدت قلبك محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت "، والحكمة (٢٣١) " العلم النافع – هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه"، والحكمة (٢٥١) " لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت ، كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك "، والحكمة (٢٥٤) " قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وقوم تتساوى أنوارهم وأذكارهم، وقم لا أذكار ولا أنوار، نعوذ بالله من ذلك" ، والحكمة (٢٥٥) " ذاكر ذكر ليستنير قلبه، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً، والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى، وبنوره يقتدى" ، والحكمة (٢٦٣) " الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ".

أمر طبعي؛ لأنه يريد أن يرسم طريق السالكين، ويرشدهم إلى ما يقربهم إلى رب العالمين، ولقد وظف ابن عطاء النور والضياء في صوره توظيفاً متعدد الأشكال، مع التدرج في استعماله وفي مستوياته: ما بين الضياء، والنور، والإشراق، والشعاع، والسراج... على حسب حال السالك إلى الله ومنزلته. ولقد جعل النور رمزاً لما سبق من أنواع الهداية التي سبقت الإشارة إليها؛ حتى إنه يمكننا أن نسمي هذه الحكم المشار إليها بالحكم "**النورانية أو الإشراقية**" إن جاز التعبير ، وقد جاءت فيها مادة "**النور**" صراحة مفردة ، وجمعاً في أكثر من عشرين حكمة، كما جاءت فعلاً بصيغة الماضي والمضارع لتعبر عن التجدد في بعض الحكموهو ما يناسب حال السالكين إلى الله الذين ينتقلون من حال إلى حال ، ومن درجة إلى درجة في الوصول والقرب من مرضاة الله على حسب منازلهم واستعدادهم، بل نجد أن مادة "**النور**" تتعدد في الحكمة الواحدة في أكثر من موضع منها؛ وذلك نظراً لما يريده من الحديث عنها ؛ حيث تشير إلى طرق الهداية والتوفيق من الله، أو إلى الكشف، أو إلى الوصول إلى مرضاة رب العالمين.وكأن صاحب الحكم أراد أن تكون صورة النور حاضرة من بداية حكمه إلى نهايتها فيما يبدو لي؛ لأن صورة النور حاضرة بكثافة من بداية الحكم إلى نهايتها على اختلاف تشكيل الصورة وبنيتها، كما جاء ذكر " الإشراق "، ومادته فعلاً في أكثر مواضعه " **يشرق ، وأشرقت ، وتشرق ، وأشرق ، وإشراق** " بصيغة المصدر؛ ليعبر عن التدرج في منازل الوصول، والترقي في أحوال ودرجات القلوب، ولم يأت لـ " **الشعاع** " ذكر إلا في حكمتين فقط يشير من خلالهما إلى آثار العلم والبصيرة، أما عن "**السراج**" فلم يات إلا في حكمة واحدة فقط ليعبر به عن الفكرة النافعة للقلب، وضوء السراج يتضاءل أمام النور والإشراق والشعاع ، وهذا التدرج في استخدام الضوء في صوره جاء منسجماً مع المعنى والفكرة. ولقد ذكرت حصراً لهذه الحكم في حاشية الصفحة السابقة، إضافة إلى الحكم التي سبق تحليلها، وبيان ما فيها من ذكر النور ومشتقاته.

أما عن "الظلام" فلم نشهد له حضوراً كثيفاً، بل غياباً إلى حد كبير في أكثر المواضع باستثناء بعض المواضع التي جاء فيها بصيغة المفرد "**ظُلْمة**" في موضعين، أو بصيغة الجمع "**ظُلَم**" في موضعين أيضاً ليعبر بالأول عن ظلمة الكون والنفس، وبالثاني عن وساوس النفس والشيطان، والشهوات والغفلات، كما جاء الحديث عن الظلام بنفي ضده وهو الإضاءة في حكمة واحدة، وهي الحكمة قبل الأخيرة، وقد سبقت الإشارة إلى نصوص هذه

الحكم في حاشية الصفحة السابقة.وقد أحسن في توظيف النور والظلام في تشكيل صوره، وفي تنوعها لتعبر عنه هذه الأمور النفسية والكشفية. فلقد وصل في تصوير طريق السلكين إلى أبعد مدى حتى أصبحت الصورة البيانية بأشكالها وتركيبها من الظواهر اللافتة في بنية الحكم، وهو ما جعلها جديرة بالدراسة لنتلمس خيوطها وأبعادها وأنماطها.والصور التي سبقت الإشارة إليها **صور مركبة** آثرها على غيرها لما في تركيب الصورة والهيئة من القوة في المعنى وإيضاحه، والتركيب في الصورة هو ما يتجه إليه دائما أهل البيان ولا يعدلون عنه لما فيه من جمع المعنى، والإيجاز في العبارة، وغير ذلك مما سبق ذكره حول تأثير التركيب في الصورة، وأثر التمثيل في إيضاح المعاني.

أماعن الصورة الكنائية، فلقد كان لها حضور أيضاً في حكمه، ولكن لم تصل إلى حدود الظاهرة كما في فنون التصوير الأخرى؛ وفي تصوري أنه رأى الاعتماد على الصور التشبيهية والاستعارية– مع تعدد أنماطهما – لما وراءهما من المبالغة والاتساع في المعنى، والتأثير في النفس، وهو بصدد الإيضاح والبيان. والكناية يتجاذبها جانبا الحقيقة والمجاز، والانتقال منواللازم إلى الملزوم، وقد تكون رمزاً، وتلويحاً، وتعريضاً، ويدخلها الخفاء في المعنى في بعض أقسامها حتى ولو كانت قريبة (١) وهو ما لم يرده الشيخ كما يلوح من حكمه، فقد أراد استمرار الصورة على وتيرة واحدة من التركيب مع استعمال التمثيل إلى أبعد مدى.كما يبدو لي أن الشيخ لم يُعنَ بالصورة الكنائية عنايته بالصورتين: التشبيهية والاستعارية نظراً لطبيعة المقام، ومقدار وفاء الصورة البيانية بالمقصود، فإذا كان علم البيان: إيراد المعنى بطرق مختلفة لوضوح الدلالة عليه فقد تكون الاستعارة في مقام هي الأولى والأوفى بالمعنى، وقد يكون التشبيه في موضع آخر هو الأنسب للمقام، وقد تكون الكناية في موضع آخر هى الملائمة للمقصود والغرض. وهذا أمر يرجع إلى ذوق الأديب، وإدراكه

(١) الكناية:لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ، ولها تقسيمان مشهوران باعتبار المطلوب الكناية، وباعتبار الوسائط. فالأول تنقسم فيه إلى المطلوب بها صفة، وموصوف، ونسبة. والثانية قسمها السكاكي بهذا الاعتبار إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة. والكناية المطلوب بها صفة أو موصوف قد تكون قريبة واضحة أو خفية، وقد تكون بعيدة. دلائل الإعجاز صـ ٦٦، ٧٠،والمفتاح صـ ٢١٩، ٢٢٤ والإيضاح ١٥٠/٣، ١٥٤، الأسلوب الكنائى نشأته وتطوره وبلاغته للدكتور محمود شيخون صـ ٥-٣٦

لخصوصية الصورة في كل موضع، ومعرفته بالمقام الذي يعبر عنه بالصور المختلفة، كما أن الأمر يرتبط بالإغراض البلاغية من ناحية أخرى.

وإتماما للحديث عن الصورة في الحكم ([1]) أذكر موضعاً من مواضع الصورة الكنائية، وذلك في الحكمة مائتين وثلاث عشرة، حيث يقول: " **وُصُولُكَ إِلَى اللهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ، وإِلَّا فَجِلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْء أَو يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ** ".ويقصد بالوصول إلى الله هنا: الوصول إلى العلم بوجوده وحده، وهو العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه،وهو غاية السالكين. وهذا الوصول لا يتحقق إلا بقمع شهوات النفس وهواها، والعيش فى مرضاة الله وفق مراد الله. ولأجل ألا يفهم من الوصول الوصول الحسي الذي يكون بين الذوات قال في آخر كلامه: " ... **وإِلَّا فَجِلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْء أَو يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ** ".والكناية هنا في عبارة " الوصول إلى الله " حيث إنها كناية عن مجاهدة النفس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شيء منها. " وأهل هذا الفن قد ذكروا في هذا المقام اصطلاحات، وألفاظ تداولوها بينهم تقريباً لفهم المعاني، فمنها: السير، والرحيل، وذكر المنازل، والمناهل، والمقامات، والرجوع، والوقوف،الوصول، والتمكين، والسكون والطمأنينة... وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شئ منها، "([2]) . وقد مضى شيء من ذلك عند الحديث عن الاستعارة في الحكمة الثانية عشرة حيث يقول: " **مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ** "،وقوله في الحكمة أربعٍ وأربعين ومائتين: " **لَولَا مَيادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ، إِذْ لَا مَسافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىَ تَطْوِيهَا رِحْلَتُكَ، وَلَا قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ تَمْحُوهَا وَصْلَتُكَ** ". وكناية المؤلف عن تحقيق العلم بالله وحده علماً يقيناً بـ " **الوصول إليه** " مما يناسب المعنى تمام المناسبة،فهو

(١) من صور الكناية في الحكم: الحكمة (٤٦):" حسن الأعمال - نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال - من التحقق في مقامات الإنزال"، والحكمة (٥٦): " النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوَارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مُدَدَ الظُّلَمِ والأَغْيَارِ".

(٢)شرح النفزي مع الشرقاوي ١٥٩/١، وشرح زروق صـ ٢٤٥، وشرح ابن عجيبة على الحكم صـ٤٥٥ ، ٤٥٦، وشرح السندي صـ ١٠١

لم يعبر بعبارات القوم الأخرى كالرجوع، أو السير، أو الرحيل، أو غير ذلك فقد أراد من خلال البنية العميقة لهذه الحكمة التعبير عن حالة من الكمال في العلم لا يناسبها السير أو الرحيل أو المقام الخ. فالوصول في الحس: تعبير عن إدراك الغاية عند الواصل. فتحققت بهذه الكناية المناسبة بين المعنى العقلي المعنوي المقصود وهو العلم، وبين اللفظ المناسب للمعنى تمام المناسبة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصورة الكنائية في حكم ابن عطاء قد كثرت عند الحديث عن الوصول إلى العلم بالله ، أو وصول النور إلى القلب القلب ، أو السير والرجوع ،أو التوجه إليه سبحانه، أو دخول النور إلى القلب. وهذا أكثر ما جاءت عليه الصورة الكنائية، فدائماً ما يكون لها ارتباط بالحديث عن وصول القلب ودخول النور إليه ؛ ولعل ذلك يرجع إلى ما في الكناية من معنى الستر والخفاء ، والقلب أيضاً فيه خفاء وستر ؛ لأنه محل الإخلاص ، وهو أمر لا يطلع عليه إلا الله (عز وجل)([1]).وبعد هذه الرحلة القصيرة في ميادين الصورة في حكم ابن عطاء الله أنتقل إلى الظواهر البلاغية في التراكيب لنقف على أبعادها، وأكثرها كثافة وحضوراً في حكمه، وما وراء بنيتها العميقة من أسرار ترتبط بالمعنى.

(١) ومن هذه الحكم: الحكمة (٢٦):" من علامات النجح في النهايات- الرجوع إلى الله في البدايات)، والحكمة (٢٠٤):" أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول"، والحكمة(٢٠١٣):" وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء".

المبحث الثاني: الظواهر البلاغية في التراكيب

من الظواهر البلاغية التي كان لها حضورٌ لافتٌ في حكم ابن عطاء الله: كثرة بعض الفنون البديعية: **كالطباق، والمقابلة، والسجع**، وأحياناً نشهد حضور هذه الفنون مع الصور البيانية على سبيل توشيح الصورة، ومناسبة امتدادها في المعنى، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك أثناء تحليل الحكم المشتملة على السجع مع الصور.وأحياناً نرى اجتماع لهذه الفنون مع بعضها، كاجتماع الطباق مع السجع ، أو المقابلة مع السجع ، أو الطباق والمقابلة ، أو السجع وحده .

وهذا الحضور المتباين لم يكن لأجل الحلية اللفظية أو لمجرد مراعاة الجرس في العبارة والتغنيم فيها، بل له ارتباط بالمعنى عند صاحب الحكم، فقد نجد الطباق في حكمة هو الأنسب بالمعنى، أو المقابلة لأنها أوفى بالغرض، أو السجع، أو غير ذلك. وأقدم هذه النتيجة لأؤكد من البداية أن حرص ابن عطاء الله على تلوين عباراته في حكمه لم يكن على حساب المعنى، فلقد قصد الشيخ إلى إيجاز العبارة، واستعان بهذه الفنون والألوان البديعية لتتم له معناه، وتعبر عن فحواه، كما أراد أن يكون لها هذا الوزن والنغم لتكون لها لذة في الآذان، وحفظاً في الألباب؛ ولذلك فلقد حشد هذه الفنون والألوان البديعية في كثير من الحكم حتى أصبحت من الظواهر التي تستحق الدراسة لبيان ما بينها من فروق ودقائق في بنيتها العميقة.ولقد بين المحققون من علماء البلاغة أن استعمال هذه الفنون البديعية المعنوية منها واللفظية إنما يستقيم ويحسن إذا تطلبها المقام، ولم تفرض على المعنى فرضاً لمجرد تزيين اللفظ أو تحسينه، أو للتلوين في العبارة وإظهار البراعة، وقد بين ابن الأثير هذه الضوابط، وهو بصدد الحديث عن الصناعة اللفظية المركبة([1]).

(١) وذكر من الضوابط:أن تكون الألفاظ في السجع طنانة رنانة لا غثة ولا باردة مع عدم التكلف فيها، وأن تكون كل واحدة من السجعتين مشتملة على معنى غير الذي اشتملت عليه أختها، وان يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا أبن يكون المعنى تابعاً للفظ. المثل السائر ٢١٣/١-٢١٥ باختصار وتصرف.

ولنبدأ مع **السجع والطباق**([1]) حيث يقول في الحكمة الأولى: " **من علامة الاعتماد على العمل – نقصان الرجاء عند وجود الزلل**"([2]). والسجع هنا من السجعالمطرَّف الذي اعتدلت فقراته، وإن اختلفت في الوزن، وسر الجمال هنا في طيات السجع وما وراءه من معنى؛ حيث جمع هنا بين حالين: حال من يعمل معتمداً على عمله من صلاة وأذكار وغيرها ثم ينقص رجاؤه في الله إذا وقع في معصية. ووراء كل فاصلة معنى يخالف الأخرى، الأول يعمل وهو يرى عمله سبيله إلى رضوان ربه وعطائه، مع أن عطاء الله غير معلل بطاعة هذا العامل، بل بمحض الفضل لعبيده، ولذلك تسلمه هذه الحال إلى نقصان الرجاء عند وقوعه في الإثم.وقصر الفاصلة هنا مما يتناسب مع حال هذا الصنف من الناس الذي نقص رجاؤه، فجاء امتداد الفاصلة في اللفظ على قدر المعنى. وجاء الطباق ([3])هنا ملتحماً في لفظتي السجع في الفقرتين ليعطي المعنى تقابلاً بين الحالين (العمل، والزلل)، ولقد أعطى السجع مع الطباق جرساً للفظ، وجمعاً للمعنى. حال من يعمل، ثم ينقص رجاؤه عند وجود الزلل، وهما حالتان متباينتان زادهما الطباق وضوحاً وبياناً، والطباق هنا من طباق الإيجاب كما سماه المتأخرون من البلاغيين؛ حيث يجمع فيه بين معنيين متضادين من نوع واحد([4]).والبنية العميقة هنا تشير إلى أن من كان رجاؤه في ربه لذاته تعالى فإن هذا الرجاء لا يتأثر مع اختلاف أحواله طاعة ومعصية.

ومن الحكم التي جمع فيها بين **السجع والطباق والاعتراض**([5]): قوله في الحكمة الثانية: " **إرادتك التجريد – مع إقامة الله إياك في الأسباب – من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب –**

(١) السجع كما عرفه ابن الأثير: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حَرْفٍ واحد. وهو ثلاثة أقسام كما ذكر المتأخرون من البلاغيين: (المطرف، والمتوازي، والترصيع) فالمطرف: ما اختلفت فاصلتاه في الوزن، فإن كان في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية فهو الترصيع، والمتوازي أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع قرينتها في الوزن والروي. المثل السائر ٢١٠/١، والإيضاح ٨٢/٤، وخزانة الأدب ٤١١/٢

(٢) شرح النفزي مع الشرقاوي ٤/١، وشرح زروق صـ ٢٥، وشرح ابن عجيبة صـ ٢٦، وشرح السندي صـ ١٧، وشرح الشرنوبي صـ ١٥

(٣) الطباق: الجمع بين المتضادين، أي المعنيين المتقابلين في الجملة، أو الجمع بين الشيء وضده. المثل السائر ١٤٣/٣، والإيضاح ٤/٤

(٤) إما اسمين، أو فعلين، أو حرفين في متعلقهما، أو مختلفين. الإيضاح ٤/٤، ٧

(٥) أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة ... الإيضاح ١٢٩/٢

مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية"(١). وهنا يشير إلى أن عزم السالك إلى الله على ترك الأسباب التي أقامه الله فيها كطلب الرزق الحلال والاشتغال بالعلم الظاهر من شهوات النفس لأنك لم تركن فيها إلى مراد الله، وكذلك الحال التي تقابلها أن يطلب الأسباب والاكتساب مع أن الله يسر له القوت من حيث لا يحتسب، وهذا انحطاط في الهمة للتعلق بالخلق بعد أن أغناه الله عنهم. فالمريد يلزم ما رضي الله له لا ما أراد هو لنفسه.وقد طالت الفاصلة السجعية في هذه الحكمة وامتدت لامتداد المعنى فيها؛ ودخول الاعتراض في بنيتها، مع وجود الطباق الذي تمثل في الجمع بين "**الأسباب والتجريد**"، ولقد كشف الطباق هنا عن تناقض هاتين الحالتين حالة من يتعلق بالأسباب، وحالة من يريد التجريد، والاعتراض(٢) هنا جاء للتنبيه على لزوم الحال التي أقام الله العبد فيها، سواء أكان من أهل الأسباب أو من أهل التجريد . فالبنية العميقة هنا تشير إلى التعلق بالله، والرجوع إلى ما أنزل فيه عبده، ولو كان على خلاف مراد نفسه. والسجع في العبارة مع طوله لا نلمح فيه خللاً في اللفظ أو انقطاع في المعنى، بل نلمح حسن الجرس،وسلاسة الألفاظ، وجاء الاعتراض بما وراءه من غرض مع الطباق مكملاً للمعنى.

وإلى حكمة أخرى جمع فيها بين **السجع والطباق مع الإيجاز في العبارة**حيث يقول: " **تنوعت أجناس الأعمال، لتنوع واردات الأحوال** "(٣). والمقصود أن الأعمال الظاهرة من صلاة وصيام وغيرها تختلف بحسب ما يرد على القلب من أحوال ومعارف، فالأعمال الظاهرة تابعة لأحوال القلوب، فإذا ورد على القلب العلم بفضائل قيام الليل توجه إليه وآثره على غيره فتقوم الجوارح به، وكذلك الصدقة والصلاة وباقي الأعمال. فما مال إليه القلب من أعمال الجوارح يكون اشتغال البدن بتحصيله.وقد فسر بعضهم الأحوال بالتقلبات الوجودية

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي ٥/١، وشرح زروق صـ ٢٦، وشرح ابن عجيبة صـ ٣١، وشرح الأحسائي صـ ٢٣١، وشرح السندي صـ ١٨، وشرح الشرنوبي صـ ١٦

(٢) من الحكم التي جاء فيها الاعتراض مع السجع: الحكمة (٩٧):" نعمتان ما خرج موجود عنهما – ولابد لكل مكون منهما – نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد"، والحكمة (١٥٨):" من اطلع على أسرار العباد – ولم يتخلق بالرحمة الإلهية – كان اطلاعه فتنة عليه، وسبباً لجر الوبال إليه ". ومن الحكم التي جاء فيها الاعتراض بدون السجع: الحكمة ١٥):" مما يدلك على وجود قهره – سبحانه – أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه"، والحكمة (٧٦): " الحزن على فقدان الطاعة – مع عدم النهوض إليها – من علامات الاغترار".

(٣) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٢/١، وشرح زروق صـ ٣٤، وشرح ابن عجيبة صـ ٤٨، وشرح السندي صـ ٢١، وشرح الشرنوبي صـ ٢٢، وشرح الأحسائي صـ ٣٠٣، ٣٠٤

كالغنى والفقر، والعز والذل، فلكل حال عمل يخصه فيكون عوضاً عن مقابله، فما فات مثلاً في الشكر على العافية استُدرك بالصبر على البلية وبالعكس، وما نقص من الأعمال البدنية تحصل بالأعمال القلبية. وإذا جئنا إلى ما يتعلق بالعبارة هنا من ناحية نظمها، وجدنا أن السجع فيها من المُطرَّف الذي هو من أحسن السجع لما فيه من الاعتدال، وقصر العبارة؛ حيث جمع في كل فقرة بين ثلاث كلمات فقط لكنها حوت من المعنى ما سبق بيانه، وهذا فيه من **إيجازالقصر**(١) ما لا يخفى .

وهنا جمع بين السجع والطباق في الكلمة الأخيرة من الفاصلة المتمثلة في " **الأعمال، والأحوال**" كما فعل في الحكمة الأولى،ففضلاً عن اتفاقهما في الفاصلة، فبينهما طباق وتضاد في المعنى؛ حيث إن الأعمال تشير إل أعمال الجوارح الجسمانية وهذه ظاهرة حسية، والأحوال تشير إلى القلوب وهي معنوية خفية. والطباق مع السجع قد جمع بين هاتين الحالتين على حد واحد ليشير إلى استقامة الجوارح مع استقامة القلوب، وبين الفاصلتين ترتيب في المعنى؛ حيث إن الثانية هي نتيجة للأولى، فضلاً عن الجرس والنغم مع ما فيها الإيجاز(٢).

والبنية العميقة للحكمة هنا تشير إلى استقامة أعمال الجوارح على ما استقامت عليه أعمال القلوب، وتنوع الأعمال حسب ما يرد على القلوب من واردات إلهية.

وإلى حكمة أخرى جمع فيها بين **السجع والمقابلة**(٣)، حيث يقول في الحكمة الثامنة والعشرين: " **ما استُودع في غيب السرائر – ظهر في شهادة الظواهر**"(٤). وهنا يلفت إلى

(١) ذكر ابن الأثير أن إيجاز القصر ينقسم إلى قسمين: أحدهما: ما دل لفظه على محتملات متعددة، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها. والثاني: ما دلت ألفاظه على محتملات متعددة، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها، بل يستحيل ذلك. والأول: إيجازالتقدير. والثاني: إيجاز القصر، والأخير أعلى طبقات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام البلغاء فإنما يوجد شاذاً ونادراً. الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، بيروت، ط دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٢) هـ (١٩٨٢) م، صـ ٢٠٥ – ٢١١، والمثل السائر ٢٦٤/٢، ٢٦٥، ٣٣٨،والإيضاح ١٠٤/٢

(٢) من الحكم المشتملة على الإيجاز: الحكمة (٣) : " سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار" ، والحكمة (٢٢) : " ما نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه" ، والحكمة (٢٧) : " من أشرقت بدايته أشرقت نهايته " ، والحكمة (٥٢):" إنَّما أَورَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ لِتَكُونَ عَليهِ وَارِداً "، والحكمة (٥٥) : " الأنوار مطايا القلوب والأسرار" ، والحكمة (٧٥) : " خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك" ،والحكمة (٨٨): "" العَطاءَ مِنَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ، والمَنْعُ مِنَ اللهِ إحْسَانٌ "، والحكمة (١٢٣) : " إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك" ، والحكمة (١٥١) : " مطالع الأنوار – القلوب والأسرار".

(٣) أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب. الإيضاح ١٢/٤

(٤) شرح النفزي مع الشرقاوي ٢٨/١، وشرح زروق صـ ٥٩، وشرح ابن عجيبة صـ ١٠٤، وشرح السندي المدني صـ ٣١، وشرح الشرنوبي صـ ٣٩، وشرح البوطي ٩/٢ - ٢٠

أن من أسر في قلبه خيراً من طاعة وبر، وتقوى وصلاح، ظهرت آثاره على جوارحه وظاهره من أدب وتهذيب، وسكون ورزانة؛ لأن أفعال الجوارح تابعة لأفعال القلوب، والظاهر دليل الباطن. وهنا تشكلت العبارة من التقابل، والسجع، حيث قابل هنا بين ثلاثة معان وثلاثة أخرى، قابل بين "**استودع، وظهر، وغيب** وبين**شهادة، والظواهر والبواطن** "، ومن روعة التقابل هنا أنه جاء بالأضدد في المعنى(١). وهذا مما أكسب التركيب جمالاً ووضوحاً؛ لأن الجمع بين الأمور المتضادة مما هو مركوز في طباع الناس، وهو مما يزيد المعاني جلاء ورسوخاً في الأذهان. وجاء السجع من السجع القصير الذي تساوت فقراته واعتدلت، وهو أيضاً من أفضل أنواع السجع(٢)، مع حسن الصياغة للعبارة، كما نلمح أن الفاصلة السجعية قد اشتملت أيضاً على التضاد بسبب التقابل فجمع هنا بين التضاد في المعنى بين " **السرائر، والظواهر** " مع اتفاقها في الفاصلة مما أضفى عليها جرساً ولذة في الآذان. وقد جاءت كل منهما جمعاً، وهو من التناسب بينهما في المعنى أيضاً؛ حيث يشير إلى اختلاف وتنوع ما يكون في البواطن من أعمال القلوب على اختلافها خيراً وشراً، وهو ما يقتضي أن تقابلها أعمال الظاهر والجوارح أيضاً خيراً وشراً، والمقابلة هنا مما صحح المعنى، وكشف عن التضاد بين حالتي الظاهر والباطن، ومدى الارتباط بينهما، وأثره في صلاح العمل، فالعبرة بإصلاح الباطن؛ لأن ما يكون فيه ينعكس على الظاهر. والبنية العميقة للمعنى تشير إلى الارتباط بين الظاهر والباطن في النيات والمعاني، والأعمال والظواهر.

وإلى حكمة أخرى جمع فيها بين **السجع، والاقتباس، والطباق، مع إيجاز الحذف** حيث يقول في الحكمة الثلاثين: " **لينفق ذو سعة من سعته: الواصلون إليه، ومن قدر عليه رزقه : السائرون إليه**" (٣). وهنا اقتبس في الفقرة الأولى من قوله تعالى: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ**

(١) والمقابلة بالأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً، وقد جاءت كذلك في كتاب الله عز وجل. خزانة الأدب ٢٥/٢

(٢) والسجع منه ما قصرت فقراته وتساوت وهو من أحسن السجع وأشرفه للاعتدال فيه، وأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظين لفظين، ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ، وأربعة، وخمسة، وكذلك إلى العشرة، وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل. والسجع الطويل تتفاوت درجاته في الطول، فمنه ما يقرب من السجع القصير، ومنه ما يزيد على ذلك. وينظر تفصيل ذلك وأمثلته في المثل السائر ص ١٥٠، ١٥١، وخزانة الأدب ٤١٢/٢

(٣) شرح النفزي مع الشرقاوي ٣٠/١، وشرح زروق صـ ٦١، وشرح ابن عجيبة صـ ١٠٧، وشرح السندي صـ ٣١، ٣٢، وشرح الشرنوبي صـ٤١

ٱللَّهُ بَعدَ عُسر يُسرا﴾[الطلاق: ٧]، واقتبس في الفقرة الثانية من نفس الآية قوله تعالى:﴿**وَمَن قُدِرَ عَلَيهِ رِزقُهُ**﴾. وهنا جاء التموضع الشكلي للاقتباس في مطلع الحكمة، وفي مطلع الفقرة الثانية منها، وأراد هنا **بـ الواصلين** أصحاب السعة في العلوم والمعارف والأسرار الذين سار الغيب عندهم كالعيان، وأراد بمن **قدر عليه رزقه** السائرين ، فهم مقدور عليهم في أرزاق العلوم والفهوم فأنفقوا على قدر ما عندهم من معارف؛ وإنما صح توقيع الآية في الواصل والسائر لاحتمالها ما هو أعم، وهذا لا يرفع حكم الأصل، وكونها في نفقة الرجل على زوجته المطلقة، وعلى زوجه إن كان الزوج ذا سعة في الرزق، ومن ضيق عليه في الرزق فلينفق مما أعطاه الله، فكلام ابن عطاء من باب الإشارات في تفاسير الآيات، وهو لا يعتقدون أن هذه الإشارات تفسير للآية (١). وهنا جمع بين الاقتباس الذي جاء في مطلع الآية، وبين طباق الإيجاب بين الواصلين والسائرين، مع الاتفاق في الفاصلة بين الجملتين. وقد جاء الطباق في فاصلة السجعتين كعادته ليجمع بين حسن النظم في اللفظ والجرس، والتضاد في المعنى بين الحالين، مع ما كسا هذه الحكمة من الاقتباس القرآني(٢)الذي زانها، وأعطى سعة لما يمكن أن يدخل من معنى وإشارة تحت الآية، وجعلها واسطة العقد، وقد نقل الآية في الاقتباس هنا عن معناها الأصلي إلى فهم غير ظاهر أدخله تحتها، مع استعمال إيجاز الحذف الذي جاء في كل فقرة؛ لأن الواصلين خبر لمبتدأ محذوف أي هم الواصلون، وكذلك السائرين.ووراء هذا الحذف سر بلاغي، وهو الإيجاز في المعنى من ناحية، والتعويل على فهم المخاطب من ناحية أخرى، وطالما كان الحذف أبلغ من الذكر في التعبير عن الغرض، وفي تصوير النفس، فنجد في ترك الذكر للشيء دلالة عليه (٣).فمزج هنا بين فنون البديع

(١) وكما أخبر هو عن تفسيرهم للآيات بأنه ليس بإحالة للآية عن معناها الظاهر، فمفهومها ما دلت عليه في ظاهرها وفي عرف اللسان، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، فهم يقرون الظواهر على ما هي عليه،ويفهمون عن الله ما أفهمهم. لطائف المنن صـــ ١٣٦، ١٣٧ باختصار.

(٢) الاقتباس: أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه. أي يكون خالياً من الإشعار بذلك والإشعاربه كأن يقال: قال الله تعالى، أو نحو ذلك. وينظر في آراء البلاغيين حول الاقتباس، ومواضعه، وما يجوز منه ومالا يجوز في: البرهان ١/ ٤٨١ – ٤٨٣، ط المكتبة العصرية، والإتقان ١/ ١١٣، ١١٤، ط دار الفكر، والإيضاح ٤/ ١١١،وبغية الإيضاح ٤ /١١١،ط مكتبة الآداب (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م، وخزانة الأدب ٢ / ٤٥٥ – ٤٥٩، ط درا ومكتبة الهلال، ط ثانية (١٩٩١) م.

(٣) وهو ما لفت النظر إليه عبد القاهر الجرجاني حين قال عنه:" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"، وينظر ما ذكره المتاخرون من البلاغيين حول أغراض حذف المسند إليه. دلائل الإعجاز صـــ دلائل الإعجاز صـــ ١٤٦، والإيضاح ٥٦/١

والمعاني على أكمل وجه، فجاءت الحكمة بستاناً حافلاً بألوان من الجمال. والبنية العميقة هنا على ما فيها من الإيجاز تشير إلى أن العارفين الواصلين إلى الله يعبرون على قدر سعة علمهم.

وأحياناً يتموضع الاقتباس في السياق في آخر الآية، مع اشتمال الحكمة على السجع والطباق، مع ما فيها من أساليب الإنشاء كالنهي والأمر ، كما في الحكمة الثامنة والخمسين في قوله : " **لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك : ﴿قُل بِفَضلِ ٱللَّهِ وَبِرَحمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيرٞ مِّمَّا يَجمَعُونَ﴾**[يونس: ٥٨](١).فالمرء لا يفرح بالطاعة من حيث إنها صدرت منه فيورثه ذلك عجباً وغروراً فيفسد عمله، وهذا هو الفرح المذموم، ولكن وجه الفرح إنما يكون من حيث إن الله وفقه وأعطاه استعداداً وقوة عليها، وهذا هو الفرح المحمود. وقد جاء الاقتباس هنا في ختام الحكمة على سبيل التأكيد لمعنى الفرح الواجب، مع ما زان هذه الحكمة من السجع، والطباق بين بروز الطاعة من العبد، وبين بروزها من الله إليه. وطباق الإيجاب هنا جاء ليكشف عن التضاد بين ما يكون من الله للعبد بعونه وتوفيقه فيستحق عليه الفرح، وبين الحال التي تخالفها أن يكون العمل من العبد مع وجود حظ النفس وعجبها فلا يستحق عليه فرحاً. وقد أكد هذا المعنى بالنهي الذي جاء في مطلع الحكمة للتنبيه والتحذير والإرشاد، مع مجيء الامر في الجملة التي عطفتها عليها لأجل النصح والتأديب، وقد اتفقت الجملتان وتناسبتاً في الإنشائية، وقد جاء الطباق مع الفاصلة السجعية كعادة الشيخ ليضفي على اللفظ جمالاً، وعلى المعنى تناسباً وانسجاماً،

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي١/٤٨، ٤٩، وشرح زروق صـ ٩٩، وشرح ابن عجيبة صـ ١٥٢، وشرح السندي صـ ٤٤، وشرح الشرنوبي صـ ٦١، وشرح البوطي ٢/ ٢٩١ – ٣٠٣، وحوى، سعيد، مذكرات في منازل الصديقين والربانين، عمان، دار عمار، (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، صـ ٣٩٩

وأكده بالاقتباس ([1]) الذي جاء في نهاية الحكمة، ولم ينقله هنا عم معناه الأصلي كما فعل في الحكمة السابقة ([2]). والبنية العميقة لهذه الحكمة تشير إلى أن الفرح له أنواع مختلفة، والفرح الحقيقي غير المذموم: هو فرح العبد بتوفيق الله له لطاعتهوإتماماً للفائدة أسوق جملة من الحكم التي اشتملت على السجع المعتدل والذي قصرت فقراته واعتدلت مع ما وراء بنيتها العميقة من المعنى، واشتمالها على فنون وألوان من البيان، وسأترك تحليلها مكتفياً بما سبق ذكره حول السجع : فمن ذلك ما ذكره في الحكمة الثانية والعشرين:" **ما من نفس تبديه – إلا وله فيك قدر يمضيه**"، والحكمة السادسة والأربعين:" **حسن الأعمال– نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال – من التحقق في مقامات الإنزال**"، والحكمة الخامسة والتسعين :" **ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً للوصول**"، والحكمة ثلاثة عشر ومائة: " **ورود الإمداد بسحب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار**"، والحكمة ثلاث وعشرين ومائة: "**إذا أراد أن يظهر فضله عليك – خلق ونسب إليك**"، والحكمة أربع وستين ومائة: " **إنما حجب الحق عنك – شدة قربه منك**"، والحكمة أربع وثمانين ومائة: " **من أذن له في التعبير – فهمت في مسامع الخلقعبارته، وجليت إليهم إشارته**"، والحكمة أربع وستين ومائتين (الأخيرة): " **الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان، وفكرة جهود وعيان: فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب**

---

(١) من الحكم التي جمع فيها بين الاقتباس والسجع، أو الاقتباس، والسجع، والطباق، أو الطباق والاقتباس فقط: الحكمة (٣١):" اهتدى الراحلون بأنوار التوجه، والواصلون لهم أنوار المواجهة. فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيء دونه:(**قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**)[الأنعام: ٩١]، والحكمة (٤١): " العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه،(**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**)[الحج: ٤٦]، والحكمة (٦٥) "خف من وجود إحسانه، ودوام لإساءتك معه أن يكون استدراجاً لك:(**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**)[القلم: ٤٤]، والحكمة (٦٨): " قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُم بِمَحَبَّتِهِ (**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**)[الإسراء: ٢٠]، والحكمة(١٥٠):" ربما أفادك في ليل القبض – ما لم تستفده في إشراق البسط(**لَا تَدْرُونَأَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا**)[النساء: ١١]، والحكمة (١٧٧) " إنْ أردتَ وُرُودَ المَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحْ الفَقْرَ والفَاقَةَ لَدَيْكَ(۞)(**إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ**)[التوبة: ٦٠]، والحكمة (١٩٥) :" عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِه فَأَوجَبَ عَلَيْهِمْ طَاعَتَهُ فَسَاقَهُمْ إِلَيهِ بِسَلاسِلِ الإِيجَابِ " **عَجِبَ رَبُّكَ مِنَ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ** "، والحكمة(١٩٧):" من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية: (**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**)[الكهف: ٤٥]، والحكمة (٢٠١٦):" متى وردت الواردات عليك-هدمت العوائد عليك:(**إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا**)[النمل: ٣٤].والمواضع التي اشتملت على الاقتباس قد اقتبس في بعضها الآية بكمالها أو جزءاً منها، وهو الأعم والأغلب. وهناك مواضع للاقتباس كلنها لم تشتمل على السجع ، كما في الحكمة (٢٠):"ما أرادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا ونَادَتْهُ هَـواتِفُ الحَقِيقَةِ الذي تَطْـلُبُ أَمَـامَكَ، ولَا تَبَرَّجَتْ ظوَاهِرُ المُكَوِّنَاتِ إِلَّا ونَادتْهُ حَـقَائِقُهَا(... **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ...**)[البقرة : ١٠٢]، والحكمة (٣٣):" الحَقُ لَيسَ بِمَحجوبٍ ، وإِنَّمَا المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيهِ ؛ إِذ لَو حَجَبهُ شَيءٌ لَسَتَرهُ مَا حَجَبهُ ، ولَو كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُو لَهُ قَاهِرٌ(**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ...**)[الأنعام : ١٨].

(٢) فالاقتباس عند البلاغيين منه ما لا ينقل فيه اللفظ عن معناه الأصلي إلى معنى آخر، ومنه ما هو بخلاف ذلك، فيكون مجازاً بطريق من الطرق المعروفة. الإيضاح ١١٧/٤، وبغية الإيضاح ١١٧/٤

الشهود والاستبصار". وإذا تأملنا في الحكم المشتملة على السجع وجدنا أن لها حضوراً كثيفاً من بداية الحكم إلى نهايتها، وقد تميزت هذه الحكم السجعية بالاعتدال في فواصلها، مع حسن الانتقاء للألفاظ، ومناسبة المعنى، وقد راعى فيها سلاسة العبارة، وحسن الجرس، والنغم الداخلي. ومما يلمح هنا أن السجع قد توشح بفنون وألوان مختلفة من البيان، كالطباق والتقابل، والاعتراض، والاقتباس، وغيرها، ومما زان هذه الفنون أن تموضعها الشكلي جاء متنوعاً فنرى الطباق يأتي مع الفاصلة السجعية فيجمع بين التضاد في المعنى، وحسن الجرس واللذة في الآذان، ونجد الاقتباس وقد تموضع في أول ووسط وآخر الحكم مما أكسبها حسناً وبهاءً. ومن اللافت هنا أن فن السجع قد جاء في الحكم التي تتصل ببيان حال السالكين ومنازلهم في القرب من الله، وما يعرض لقلوبهم من أحوال، والحديث عن قدر الله في خلقه، وصفاء القلوب ... إلى غير ذلك مما يتصل ببيان أحوال السالكين ومنازلهم.ونلمح هنا تنوع السجع؛ حيث جاء من أنواع مختلفة: كالمطرف وهو من أجود وألطف أنواع السجع، كما جاء "الترصيع والتوازي" أيضاً في بعض الحكم([1])، وهذا التنويع نرى فيه القصدية لأجل التفنن في العبارة ، مع مناسبة المعنى ، وعدم التكلف([2]) ، كما نلمح حضوراً لأسلوب التوازن في بعض الحكم ([3])، فلم يقتصر على الاتفاق في الفواصل السجعية، بل استعمل أيضاً الاتفاق في الوزن؛ وذلك ليكتمل لنص الحكم كل أشكال التناسب في الوزن والجرس، مع المناسبة في المعنى. ونلمح أيضاً حضور الأساليب الإنشائية والخبرية، وفنون المعاني الأخرى كالإيجاز، وأنواعاً من الإطناب ... بصحبة "فن السجع" لمناسبة المعاني

(١) ومن ذلك الحكمة: (٢٥):" ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك"، والحكمة (٢٧):" من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته"، والحكمة (٨٨):" العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان" ، والحكمة (١٥٣) :" نور يكشف لك عن آثاره، نور يكشف لك عن أوصافه"، والحكمة (١٩٦): " أوجب عليك وجوب خدمته، وما اوجب عليك إلا دخول جنته"

(٢) يرى محمد باسم دهمان وهو أحد شراح الحكم المعاصرين أن هناك نوعاً من التكلف في ألفاظ بعض الحكم لتجميل العبارات مع وجود التكرار للمعاني بألفظ مختلفة. ويجاب على ذلك بأن وجود التكرار في بعض المعاني بألفاظ مختلفة في الحكم مما لا ينكر وجوده نظراً لأهمية المواضيع التي تعالجها، وحاجتها إلى التأكيد في الأذهان، مثل الحكم التي تتحدث عن العلم، أو ثواب الأعمال والجزاء عليها ... أما فيما يتعلق بتجميل اللفظ فهو مما حرص عليه ابن عطاء نظراً لحاجته إلى أن تحفظ هذه الحكم ويعمل بها أهل السلوك، لكن فن السجع فيها اتسم بالسلاسة والبعد عن التكلف. فدعوى التكلف لتجميل اللفظ في بعضها مما لا تستقيم عند التأمل في معناها ومبناها. ينظر أذواق النقشبندية في شرح الحكم العطائية، دمشق، ط دار طيبة الغراء، ط١، (١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م)، صـ ٩، وقد قام المؤلف بدمج بعض الحكم، وحذف المكرر كما تراءى له.

(٣) والتوازن أو الموازنة والمماثلة: أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية، فإن كان ما في إحدى القرنيتين من الألفاظ مثل ما يقابله في الأخرى في الوزن خص باسم "المماثلة"، ومن ذلك الحكمة (٤٥):" ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب"، والحكمة (٢١٢):"لا يزيد في عزه إقبال من أقبل، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر ".

على وجه يحفظ للعبارة سلاستها وسهولتها من ناحية، ودقة المعنى من ناحية أخرى. هذا وقد كان للطباق والمقابلة حضور لافت **بدون السجع**، مع ما اشتملا عليه من التصوير والتمثيل في بعض المواضع. وأسوق بعضاً من هذه النماذج المشتملة على هذين الفنين من فنون البديع المعنوي لما لهما من أثر بارز في المعنى، وحتى تكتمل فكرة البحث.

ولنبدأ مع " **فن الطباق**"، فمن ذلك ما ذكره في الحكمة التاسعة والثمانين حيث يقول: " **جل ربنا أن يعامله العبد نقداً، فيجازيه نسيئة**"(١).والمعنى هنا: أي تعالى الله أن يعامله العبد بالعمل الصالح ناجزاً، فيجازيه مجازاة مؤجلة، فجزاء الله له ناجز في الدنيا بما يرشده إليه من أنوار الهداية، وبما يدفع عنه من المضار، فعوضه الله جنة المعارف عاجلاً في الدنيا، وجنة الزخارف آجلاً في الآخرة، مع ما يتحفه به من النعيم الروحي، والسرور القلبي بالهداية والتوفيق.والطباق هنا جاء بين "**النقد، والنسيئة**، وفيه من لطيف المناسبة أن الحديث عن التجارة والبيع والشراء فيه إما المناجزة بالثمن وإما التأجيل، فناسب هنا أن يأتي الطباق بالأمرين لمناسبة المعنى، ومن دقة الطباق هنا: إشارته إلى كرم الله وفضله على عباده، وهذا مما يتصل بالبنية العميقة للمعنى، فلقد جرت عادة الناس في تعاملاتهم أن الكريم إنما ينجز الثمن عند شرائه للشيء، بل يزيد على الثمن تفضلاً وكرماً ، ولله المثل الأعلى ، فكذلك الله يتحف عبده الصالح بأفضاله ونعمه في الدنيا ، ويزيده في الآخرة من فضله بدخول الجنة ، وحلول رضوانه عليه. وفي طيات هذا الطباق صورة وتمثيل للمعنى؛ حيث صور هنا حال العبد في طاعته لله التي يرجو عليها ثوابه العاجل في الدنيا، ورضاه في الآخرة بحال البائع الذي يبيع سلعته ويريد الثمن عليها عاجلاً وزيادة وتفضلاً ممن اشترى. فطباق الإيجاب هنا مما يناسب المعنى لا للتضاد فقط، وإنما لرسم هذه الصورة الحية من دنيا الناس. ولقد شرح شيئاً من "الثمن" الذي أنجزه الله لعبده في الدنيا في الحكمتين التاليتين؛ حيث يقول في الحكمة التسعين:" **كفى من جزائه إياك على الطاعة – أن رضيك لها أهلا**، وفي الحكمة الحادية والتسعين، حيث يقول: " **كفى العاملين جزاء – ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته**"

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي ٧٣/١، وشرح زروق صـ ١٣٧، وشرح ابن عجيبة صـ ٢٢٨، وشرح السندي صـ ٥٤، وشرح الشرنوبي صـ ٧٩، ٨٠

ومن الحكم التي جمع فيها بين نوعين من أنواع الطباق، مع ما اشتملت عليه من التصوير: قوله في الحكمة إحدى وثمانين ومائة:" **من عَبَّر (١)من بساط إحسانه – أصمتته الإساءة، ومن عَبَّر من بساط إحسان الله إليه – لم يصمت إذا أساء**"(٢). وهنا يشير إلى صنفين من الصالحين: الذين يعبرون عما منحهم الله، ويعلمون ويرشدون، فالصنف الأول منهم ناظر إلى إحسانه وطاعته في نفسه، ويرى أن إفادته العلوم إنما جاءت من أعماله الصالحة، فإذا أخطأ أو وقع في زلة سكت عن الوعظ والإرشاد للناس حياءً من الله بسبب المعصية التي صدرت منه، وسبب ذلك مشاهدته لإحسان نفسه. أما عن الصنف الثاني من العلماء العارفين: فهم الناظرون إلى إحسان إليهم وليس إلى طاعتهم وإحسانهم في أنفسهم؛ حيث يغيبون عن رؤية أنفسهم، فإذا كان منهم زلة أو إساءة لم يسكتوا عن التعبير؛ لأن غيبته عن نفسه، ومشاهدته لوحدانية الله وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك؛ ولذلك قيل: جراءة الجنان تنطق اللسان، وتطلق العنان.

والطباق قد جاء بنوعيه الإيجاب منه والسلب، ليعبر عن حالة هذين الفريقين بما تحمل من تفاصيل، وليرسم لحال كل واحد منهما وقدرته على التعبير والإصلاح، فطابق بين الإساءة والإحسان وهذا من طباق الإيجاب، وطابق بين إثبات الصمت ونفيه، وهذا من طباق السلب؛ ليجمع لنا بين حالتي الطاعة والمعصية، وحالة الكلام والصمت ليكتمل المعنى. كما أن هناك تضاداً في المعنى أيضاً بين "إحسانه، وإحسان الله إليه".

ومما زان هذا الطباق ما اشتمل عليه من التصوير؛ حيث عبر عن الأعمال الصالحة بالبساط الذي يجلس عليه، ليمثل به لسعة الأعمال الصالحة، أو ليمثل للاستناد والاعتماد عليه؛ لأن البُسط أعدت للجلوس عليها، فكأن حال الأول أنه ناظر إلى ما قدم من عمل فيعتمد عليه، والثاني ناظر إلى إحسان الله إليه فيعتمد عليه، فكل له بساطه على حسب حاله.. والبنية العميقة هنا تشير إلى أن العارف الحقيقي كامل المعرفة هو من ينظر دائما إلى ما يكون من الله إليه، لا ما يكون منه إلى الله.

وإلى طباق آخر جاء في متعلق الحرفين، مع ما اشتمل عليه من الإيجاز في المعنى، وذلك في الحكمة ثلاث وثلاثين ومائتين، حيث يقول:" **العلم إن قارنته الخشية- فلك وإلا**

(١) وعبَّر بالتشديد من التعبير، وهو المناسب لمعنى أصمتته، وفي بعض النسخ بالتخفيف من العبور وهو الدخول. شرح رزوق صـ ٢١٦

(٢) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٣٤/٢، وشرح رزوق صـ ٢١٦، وشرح ابن عجيبة صـ ٤٠٠، وشرح السندي المدني صـ ٨٩، وشرح الشرنوبي صـ ١٢٧، وشرح البوطي ٢٣٩/٤-٢٤٤

فعليك"([1]).فالعلم الذي ينفع صاحبه، ويكون له ثوابه ما كان مع خشية الله وتقواه، أما إن قصد به المباهاة وطلب الدنيا فعليه وزره. والطباق هنا جاء ما بين "**فلك**"، "**وعليك**"؛ حيث إن "**لك**" تفيد معنى المنفعة في الدنيا والآخرة، و"**عليك**" تفيد معنى المضرة فيهما، وقد اتسم الطباق هنا بالإيجاز؛ حيث جعله ظاهراً في الحرفين المتباينين في المعنى، وقصد ما يتعلق بهما من شأني الدنيا والآخرة نفعاً وضرراً. والبنية العميقة هنا تشير إلى أهمية الإخلاص والتقوى لصلاح العمل ونفعه لصاحبه في الدنيا والآخرة.

ونلمح من خلال ما سبق حضور فن الطباق في الحكم، مع فن السجع وغيره من الفنون ، أو حضوره مع فنون أخرى من البيان كالتصوير، والإيجاز، مع وجود التنوع في أشكال هذا التضاد على حسب ما يستدعي المعنى، وقد شاع استعماله للطباق عند الحديث إصلاح العمل، وبيان حال العاملين ومنازلهم، والإخلاص في العلم،وثواب الله للعاملين المخلصين، والمنع والعطاء على حسب الحال، فجاء الطباق([2]) ليرسم صوراً لحالتين مختلفتين من أحوال العاملين في الإخلاص، أو الثواب، أو العلم والعمل ، وأكثر أشكال الطباق التي جاءت في حكمه كانت من الفن الأول الذي يصرح فيه بإظهار الضدين (طباق الإيجاب) على اختلاف أقسامه، وقد جاءت صورة التضاد متناسبة من جهة اللفظ؛ حيث إن الألفاظ التي استدعاها في مطابقته بينها تضاد حقيقي في المعنى، وذلك مما يفيد في إيضاح صورة التضاد في النفس.

وننتقل إلى فن **المقابلة** لنلتمس حضوره في الحكم، وما وراءه من صور؛ حيث كان للتقابل حضور لافت في الحكم بصحبة فن السجع وغيره كما سبق، ولنستعرض بعض النماذج لنرى ما فيها من خصائص، فمن ذلك الحكمة الخمسين؛ حيث يقول:" **لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا قابلك فضله**"([3]). والمعنى هنا: أن صغائر الذنوب من العبد تتحول إلى كبائر إذا قابل الله العبد بعدله؛ لأن صفة العدل إذا ظهرت على من أبغضه الله تلاشت

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي١٧٠/٢، وشرح زروق صـ ٢٦٠، وشرح ابن عجيبة صـ ٤٨٥، وشرح السندي المدني صـ ١٠٧، وشرح الشرنوبي صـ ١٥٢، وشرح البوطي ١٢٨/٥-١٣٣

(٢) من الحكم المشتملة على الطباق إضافة إلى ما سبق: الحكمة (٨٤):" متى فتح لك باب الفهم في المنع – عاد المنع عين العطاء"، والحكمة(١٠٢) :" متى أطلق لسانك بالطلب – فاعلم أنه يريد أن يعطيك"، والحكمة(١٤٥) :" إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل- فأثن عليه بما هو أهله"، والحكمة(١٧٨) :" تحقق بأوصافك – يمدك بأوصافه، تحقق بذلك- يمدك بعزه، تحقق بعجزك – يمدك بقدرته، تحقق بضعفك – يمدك بحوله وقوته"، والحكمة(٢٣٨) :" من أثبت لنفسه تواضعاً – فهو المتكبر حقاً؛ إذ ليس لتواضع إلا عن رفعة؛ فمتى أثبت لنفسك تواضعاً – فأنت المتكبر حقاً".

(٣) شرح النفزي مع الشرقاوي ٤٦/١، وشرح زروق صـ ٩٤، وشرح ابن عجيبة صـ ١٤٤، وشرح السندي صـ ٤١، وشرح الشرنوبي صـ٥٨، وشرح البوطي ٢٢٣/٢-٢٣٦

حسناته،وعادت صغائره كبائر، وكذلك كبائر الذنوب من العبد تتحول إلى صغائر إذا قابل الله العبد بفضله وإحسانه، فإذا ظهرت صفة الفضل لمن أحبه تحولت سيئاته إلى حسنات.والمقابلة هنا قد جلت هذا المعنى وكشفته؛ حيث جمعت ما بين حالتين متقابلتين من حالات العبد، حالة الصغائر التي تتحول إلى كبائر مع العدل، وحالة الكبائر التي تتحول إلى صغائر مع الفضل، وفي طيات هذه الحكمة إيجاز دقيق لأحوال النفس من حيث الطاعة والمعصية، والخوف والرجاء. ومن سمات المقابلة: صحة التضاد وتناسبه فيها؛ حيث جمع بين الصغيرة والكبيرة، والعدل والفضل؛ ليرسم لنا صورة لمدى رحمة الله بعباده المحسنين. ومما زان هذه المقابلة: اشتمالها على فن السجع في آخرها مما أضفى عليها جرساً ونغماً، فجمع بين حسن اللفظ والمعنى.وفي بنية هذه الحكمة العميقة إشارة إلى الإخلاص في العمل، وإلى الجمع بين الخوف والرجاء، والنظر إلى إحسان الله إلى عباده، وليس النظر إلى ما كان من العبد من عمل.

ومن لطيف المقابلة وتناسبها في المعنى: ما جاء في الحكمة الثانية والستين؛ حيث يقول: " **أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع**" (١). يشير هنا إلى معنى الحرية الحقيقة، والتي لا تتحقق إلا باليأس من الناس، وعدم الطمع فيما في أيديهم، فمن طمع في شيء من الدنيا كائناً ما كان فهو عبد له، واليأس من الشيء دليل على فراغ القلب منه. والتقابل هنا جاء ليعبر عن أحوال متضادة ليفسر معنى الحرية والعبودية تفسيراً آخر غير ما عهده الناس، فقابل هنا بين ثلاثة معانٍ تمثلت في "**الحر، و "عن" التي جاءت بمعنى من، والآيس**"، ويقابلها على الترتيب "**العبد، ولام "له" التي جاءت بمعنى في، والطامع**"، والتعبير باسم الفاعل **(الآيس، والطامع)** لبيان ثبات هذه الحال لصاحبها؛ وتعبر عن فرط الاستغناء عن الناس عند صاحب الحال الأولى، وفرط الشغف والتطلع عند صاحب الحال الثانية، وقد صور الحالتين في صورة الحرية والعبودية، إشارة إلى عز الأول، وذل الثاني. ومن سمات المقابلة هنا: الإيجاز في المعنى. والبنية العميقة هنا تشير إلى إخلاص القلب لله عز وجل، وعدم الطمع فيما أيدي الناس، والإقبال على الله بالكلية.

ومن الحكم التي اشتملت على روعة التقابل، مع صفاء العبارة، وحسن صياغتها: الحكمة السادسة والتسعين؛ حيث يقول: " **معصية أورثت ذلاً وافتقاراً – خير من طاعة أورثت عزاً**

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي٥٢/١، وشرح زروق صـ ١٠٤، وشرح ابن عجيبة صـ ١٦١، وشرح السندي صـ ٤٥، وشرح الشرنوبي صـ ٦٣، وشرح البوطي ٣٣٢/٢-٣٤٢

واستكباراً"(١).وهنا يشير إلى أن الأصل في الطاعة هو الذل والافتقار والخضوع لله، وهذه ثمرتها ومقصودها، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار،فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني واتصفت بأضدادها، فالمعصية التي تجلب هذه المعاني أفضل منها، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق، وصارت الطاعة معصية، والمعصية طاعة.والتقابل هنا بين ثلاثة معانٍ تمثلت في جانبها الأول في "**المعصية، والذل، والافتقار**" ، وتمثلت فيما قابلها على الترتيب في " **الطاعة، والعز، والاستكبار**" ، وروعة المقابلة هنا أنه بدأ بذكر المعصية أولاً، والتي جاءت نكرة لتعم كل معصية كانت هذه حال صاحبها من الانكسار والذل لله، وقد جاءت أجزاء المقابلة من التضاد الحقيقي في المعنى لحالتين مختلفتين ليصور صورة الذليل المنكسر لمعصيته، وصورة الفرح المستكبر بطاعته، والصورة هنا فيها مفارقة في الحالتين؛ حيث إن الأصل في الأول أن يكون هو المستكبر، والأصل في الثاني أن يكون هو المفتقر الخاضع. ومما زان التقابل هنا أن توشح بالسجع في الفاصلة مع التضاد في المعنى. والبنية العميقة هنا تشير إلى أن العبرة ليست بصورة الطاعة ولا المعصية، وإنما بما ينتج عنهما فليتأمل!

ولقد بين ذلك في حكمة أخرى ترتبط بها في المعنى، وذلك في الحكمة التاسعة والخمسين بعد المائة حيث يقول: " **حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما يخفى صعب علاجه**"(٢). فحظ النفس من المعصية لذتها وقضاء مآربها وشهواتها، وهو أمر ظاهر يراه الناس وتعرفه كل نفس من حالها، لكن الجانب الأخطر منها هو حظها في الطاعة؛ لأنه أمر باطن فيها، فقد يريد صاحبها من طاعته الاشتهار بها، أو نحو ذلك، وهذا أمر لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر؛ وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها، فإذا أمرتك بها لم تعلم حظها فيها إلا بعد تفتيش. ولذلك ختم الحكم ببيان صعوبة علاج ما يخفى في النفس لأنه يحتاج إلى دقة في الفهم، ونفوذ في الإدراك.وجمال التقابل هنا في الجمع **بين حظ النفس الظاهر في المعصية، وحظها الباطن في الطاعة،** فقد قابل هنا بين ثلاثة معان تقابلاً حقيقياً ليصور لنا حالات النفس وما يعتريها في حال طاعتها وحال معصيتها، وقد استعان بفن السجع ليتم صورة التقابل هنا بين الحالتين، وقد جاء السجع من

(١) شرح النفزي مع الشرقاوي٧٦/١، وشرح رزوق صـ ١٤١، وشرح ابن عجيبة صـ ٢٣٨، وشرح السندي صـ ٥٦، وشرح الأحسائي صـ ٢٨٧، وشرح الشرنوبي صـ ٨٢

(٢) شرح النفزي مع الشرقاوي ١٢٣/١، وشرح زروق صـ ١٩٣، وشرح ابن عجيبة صـ ٣٦٢، وشرح السندي المدني صـ ٨١، وشرح الشرنوبي صـ ١١٦، وشرح البوطي ١٠٧/٤-١١٢

الترصيع ليتفق الوزن والروي مع وجود التضاد في المعنى، فاجتمع تناسب اللفظ والمعنى معاً. والبنية العميقة هنا تشير إلى إخلاص العمل، وتطهيره من صور الرياء، والنظر في النفس، وتطهيرها من حظوظها، والدقة في معالجة عيوبها الخفية.

ونلمح من خلال ما سبق أن فن التقابل كان له حضور لافت في نص الحكم مع توشحه بالسجع في كثير من المواضع(١)، وقد يأتي التقابل وحده دون السجع على حسب ما يقتضيه المعنى، والتلوين والتفنن في العبارة (٢). وإذا نظرنا إلى رتب المقابلة وجدنا أنها من المقابلة المتوسطة في عددها، ما بين مقابلة ثلاثة بثلاثة أو اثنين باثنين، ويبدو أن ابن عطاء قد حرص على أن تكون المقابلة مقتصرة على هذا العدد من المعاني المتضادة نظراً لأن الحديث هنا عن حال النفس في حالتين مختلفتين، طاعة ومعصية، وإخلاصاً ورياءً، وعلماً وعملاً، فأراد من خلال المقابلة أن يجمع ما لنفس من أحوال مختلفة تتوارد عليها، وتتقابل فيها حال سلوكها إلى الله (عز وجل). كما أنه دائماً ما يميل إلى الإيجاز في عبارات الحكم مع الجمع بين هذه الفنون البديعية لكي تستقر في الأذهان، فصياغة الحكم على هذا النسق بصورة عامة أمر مقصود إليه لكي يسهل حفظها، وتسير بين الناس، وقد تحقق له ما أراد من ذلك.

ومما يلمح حول المقابلة في الحكم: اجتماعها مع السجع عند الفاصلة السجعية، فجمعت بين تناسب اللفظ في الجرس، وتناسب المعنى في النظم، كما استدعى فن التصوير من خلال التقابل في كثير من المواضع كما سبق؛ وكأنه أراد أن يبين أن فن التقابل ليس مجرد

(١) من المواضع الأخرى : الحكمة (٢٥):" ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك"، والحكمة(٨٣):" ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك"، والحكمة(٨٨):" العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان"، والحكمة(١٢٤):" لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك"، والحكمة (١٩٣) :" من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات"، والحكمة (٢٢٦) :" ليقل ما تفرح به- يقل ما تحزن عليه"، والحكمة (٢٢٨) :" إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات، إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن"، والحكمة (٢٥٩) :" رب عمر استعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده".

(٢) ومن ذلك: الحكمة (٣٥):" أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها... "، والحكمة (٤٥):" ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب زاهد"، والحكمة (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك"، والحكمة (٨٠):" بسطك كي لا يبقيك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه"، والحكمة (١١٤):" الغافل إذا أصبح ينظر ما ذا يفعل؟ والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به؟"، والحكمة (١٣٩):" أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر"، والحكمة (١٤٢):" الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها"، والحكمة(١٤٩):" إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت ان يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه"، والحكمة (١٥٧):" ربما أطلعك على غيب ملكوته، وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد".

جمع للمعاني المتضادة، بل وراء ذلك ارتباط كبير بالمعنى والسياق، فهي في موضعها جاءت مناسبة للمعنى حيث استدعها، ولم تفرض عليه فرضاً.

ونلحظ هنا أن المقابلة قد كثرت في المواضع التي تتحدث عن إخلاص العمل لله (عز وجل)، وتطهير النفس من الرياء، وإصلاح القلب، والزهد في الدنيا، وقطع الطمع في الناس،والإقبال على الله بالكلية.

خاتمة:

اتضح من خلال البحث ما تتمتع به حكم ابن عطاء الله من صفاء في العبارة، ودقة في المعنى، وحسن في الصياغة،مع الاشتمال على فنون وألوان من البلاغة استدعاها إلى حكمه لتشكيل بيانه، وإبراز مقاصده وأغراضه.

وقد لوحظ حضور بعض الفنون البلاغية في الحكم حضوراً لافتاً يستحق الدراسة، وكان من هذه الفنون البلاغية: فن التصوير.وأكثر الصور التي جاءت غلب عليها التركيب في الهيئة نظراً لما للتركيب في الصورة من أثر في إيضاح المعاني، والكشف عن غموضها، كما في التشبيه البليغ، والتمثيلي، والاستعارة المكنية والتصريحية مع كثرة الأولى لما لها من قرينة تخييلية تصور بها الأمور المعنوية في صورة حسية، أما الكناية فجاء حضورها في بعض الحكم التي تتحدث عن وصول القلب، وسيره إلى الله.

وفيما يتصل بفنون البديع وألوانه : رأينا كثافة فن السجع مع توشحه بفنون مختلفة من البيان والبديع، ولقد كان السجع من المعتدل الذي تساوت فقراته، مع حسن الصياغة وروعة الجرس، ودقة المعنى، وصفاء العبارة واشتمالها على الإيجاز، كما رأينا الحضور اللافت للطباق والمقابلة، وغيرهما من فنون البديع المعنوية واللفظية مع السجع وبدونه دون أن نشعر بوجود تكلف في العبارة، أو مجاوزة لحد الاعتدال؛ حيث كان ابن عطاء حريصاً على أن يكون حضور فنون البديع بما يقتضيه المعنى ، والنظم ؛ حتى يجمع بين صفاء العبارة، واستقامة المعنى.

وقد اتسمت المعاني في بنيتها العميقة بالدقة والعمق؛ لأنها تتحدث عن أحوال النفس حال سلوكها إلى الله، وتشير إلى إصلاح القلب، ومعالجة خواطره وتقلباته، وإخلاص العمل لله.وقد لاحظنا حضور هذه الفنون وكثرتها في بعض المواضع حسب ما يقتضي المعنى في بنيته العميقة، وقد سبقت الإشارة إلى كل ظاهرة من هذه الظواهر السابقة، والمواضع والمعاني التي كثرت فيها من خلال التتبع والاستقراء للحكم في مواضعها المختلفة.

والله من وراء القصد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم
١- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ت (٩١١) هـ، ط دار الفكر، بيروت، (١٣٩٩) هـ (١٩٧٩) م .
٢- أذواق النقشبندية في شرح الحكم العطائية، محمددهمان، ط دار طيبة الغراء، دمشق، ط ١، (١٤٣٠) ه.
٣- الاستعارة نشأتها وتطورها، محمود السيد شيخون، ط كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة.
٤- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ط دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٩) هـ (١٩٨٨) م ،تحقيق : محمد رشيد رضا، وطبعة دار المدني بجدة ، (١٤١٢) هـ (١٩١٩) م ، تحقيق : محمود شاكر .
٥- الأسلوب الكنائي، نشأته، تطوره، وبلاغته، محمود شيخون، ط كلية الدر اسات الإسلامية والعربية بالقاهرة .
٦- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، جمال الدين الشيال، ط مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط، (٢٠٠١).
٧- الأعلام لخير الدين الزركلي ت (١٣٩٠) هـ، دار العلم للملايين، (١٩٩٠) م.
٨- إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- (١٤١٣) هـ .
٩- الإيضاح لتلخيص المفتاح، الخطيب القزوينى، ط مكتبة الآداب، (١٤١٧) هـ ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدى.
١٠- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد بن عجيبة، ط دار المعارف، (١٤٠٤)هـ، تحقيق: محمد أحمد حسب الله.
١١- بحوث في البيان: محمود السيد شيخون، ط كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، بدون تاريخ .
١٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، ط دار الكتاب الإسلامي ، بدون تاريخ .
١٣- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ط المكتبة العصرية ، بيروت ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم
١٤- بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، ط مكتبة الآداب، (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م
١٥- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس،ابن عطاء السكندري، ط مصطفى البابي الحلبي، ط ثانية، (١٣٧٥) هـ .
١٦- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، مصر، شوقي ضيف، ط دار المعارف، القاهرة، ط ٢، (١٩٩٠) م.
١٧- التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد أبو موسى، ط مكتبة وهبة، ط رابعة (١٤١٨) هـ (١٩٩٧)م
١٨- تفسير ابن عاشور المسمى التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط دار سحنون، تونس (١٩٩٧) م.
١٩- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ط دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد عبد الغني.

٢٠- تلخيص الحكم، شرح الحكم العطائية، نور الدين البريفكاني، ط الناشر العربي، القاهرة، تحقيق: محمد الكزني.
٢١- التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، ط دار الفكر، ط أولى، (١٩٠٤) م.
٢٢- التنوير في إسقاط التدبير،ابن عطاء السكندري، ط دار جوامع الكلم، (١٩٩٩)م .
٢٣- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم،أحمد بن رجب، ط الريان، ط١، (١٤٠٧) هـ .
٢٤- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ابن الأثير، ط المجمع العلمي العراقي، (١٣٧٥) هـ .
٢٥- جامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني، ط مركز بركات رضا بالهند، (٢٠٠١) م.
٢٦- الجمان في تشبيهات القرآن،ابن ناقيا البغدادي، ط دار الفكر، بيروت، ط ١، (١٤٢٣) هـ ،تحقيق : محمد الداية.
٢٧- حاشية الدسوقي على مختصر سعد الدين التفتازاني، محمد بن عرفة الدسوقي المالكي، ط دار السرور، بيروت.
٢٨- الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، ط دار الفكر، بيروت، (١٤٢٤)هـ (٢٠٠٣)م.
٢٩- الحكم أقوى دستور تربوي صاغه في القرن السابع الهجري، أحمد خلف الله، ط منتدى دار الإيمان، بدون تاريخ.
٣٠- خزانة الأدب وغاية الأرب،ابن حجة الحموي، ط دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط، (١٩٩١) م.
٣١- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، عبد الهادي العدل، ط دار الطباعة المحمدية، ط ثالثة، (١٣٧٨) هـ (١٩٥٨) م .
٣٢- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لأحمد بن حجر العسقلاني، ط دار الجيل، بدون تاريخ.
٣٣- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى، ط دار الكتب العلمية، ط ١، (١٤٠٩) ه، تحقيق: محمد رشيد رضا وطبعة دار المدني بجدة ، تحقيق : محمود شاكر .
٣٤- الديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون، ط دار الكتب العلمية، ط أولى (١٤١٧) هـ
٣٥- ديوان الهذليين، ط مطبعة دار الكتب المصرية، ط ثانية (١٩٩٥) م.
٣٦- ذيول العبر للذهبي، ط دار الكتب العلمية، ط أولى، (١٤٠٥) هـ (١٩٨٥) م.
٣٧- سر الفصاحة، سعيد ابن سنان الخفاجي الحلبي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ، (١٤٠٢) هـ (١٩٨٢) م .
٣٨- سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم، أبو بكر محمد بن عمر بن الملا الأحسائي ت (١٢٧٠)هـ، ط دار الفتح للدراسات والنشر، عمان ، ط ١ ، (١٤٣٢)هـ (٢٠١١)م.
٣٩- سواطع الحكم، شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، ط دار ابن كثير، بيروت، ط ٢، (١٤١٠)هـ (١٩٨٩)م. تحقيق: عبد الفتاح البزم.
٤٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩) هـ، ط دار الكتب العلمية، بدون تاريخ .

٤١- شرح الحكم العطائية، محمد حياة السندي، ط مكتبة المعارف، بيروت، ط١، (١٤٣١)هـ ، تحقيق : نزار حمادي.
٤٢- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، ط دار الكتب العلمية، ط أولى ، (١٤٢٢) هـ (٢٠٠١) م .
٤٣- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن بن سهل العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبي الفضل، ط دار إحياء الكتب العربية، ط أولى (١٣٧١) هـ (١٩٥٢) م .
٤٤- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي، ط دار إحياء الكتب العربية، فيصل البابي، ط ١، (١٣٨٣) هـ
٤٥- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، علي بن حمزة العلوي،ط المقتطف، بدون تاريخ.
٤٦- الطرر والحواشي ينتفع به المتفقه والناشي (الشرح السابع عشر للحكم)، أحمد بن محمد الفاسي المعروف بـ زروق ت (٨٩٩)هـ، ط مطابع دار الشعب ، (١٤٠٥)هـ(١٩٨٥)م ، تحقيق : عبد الحليم محمود.
٤٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ت (١٣١٧) هـ ، ط دار السرور .
٤٨- علم البيان، بدوي طبانة، ط مكتبة الأنجلو، ط رابعة (١٣٩٧)هـ (١٩٧٧)م .
٤٩- غربال الزمان في وفيات الأعيان ليحيى الحرضي اليماني، ط مطبعة زيد بن ثابت بدمشق (١٤٠٥) هـ (١٩٨٥) م .
٥٠- غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية، محمد بن إبراهيم ابن عباد النفَّزِي الرندي، ط دار الفكر، بيروت.
٥١- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندري، ط منتدى دار الإيمان.
٥٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، ط دار إحياء التراث العربي، ط١، (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
٥٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ط دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣) هـ (١٩٩٢)م .
٥٤- كشف الغطاء شرح وترتيب حكم ابن عطاء، محمد خليل الخطيب، ط مطبعة الشعراوي بطنطا، بدون تاريخ .
٥٥- الكليات لأبي البقاء الكفوي، ط مؤسسة الرسالة، ط أولى ، (١٤١٢) هـ (١٩٩٢) م .
٥٦- لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، ط دار صادر، بيروت، ط ثالثة، (١٤١٤) هـ .
٥٧- لطائف المنن،ابن عطاء السكندري، ط دار المعارف، ط ثانية، (١٩٩٩) م ،تحقيق : عبد الحليم محمود.
٥٨- لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، عبد الوهاب الشعراني، ط دار الطباعة العامرة الشرقية،(١٢٩٩) هـ .
٥٩- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط مكتبة المعارف، الرياض، ط أولى ، (١٤١٣) هـ (١٩٩٢) م .
٦٠- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ابن الأثير، ط نهضة مصر، (١٤١٦) هـ. تحقيق: الحوفي، وبدوي طبانة.
٦١- المختصر لسعد الدين التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، ط دار السرور .

٦٢- مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، سعيد حوى، ط دار عمار، بيروت، (١٤٠٩)هـ(١٩٨٩)م.
٦٣- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لعبد الله اليافعي، ط دار الكتب العلمية، ط أولى (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م .
٦٤- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، (١٤٢٢) هـ.،تحقيق: محمد سمك.
٦٥- المطول شرح تلخيص المفتاح،سعد الدين التفتازاني الهروى ت (٧٩١) هـ ، ط المكتبة الأزهرية ، (١٣٣٠) هـ .
٦٦- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط الثانية، ط دار الشروق الدولية، ط رابعة ، (١٤٢٦) هـ
٦٧- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، ط الحلبي ، ط أولى .
٦٨- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء السكندري، ط الحلبي، ط أولى ، (١٣٨١) هـ .
٦٩- المنح القدوسية على الحكم العطائية، عبد الله الشرقاوي، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
٧٠- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لأبي يعقوب المغربي، ط دار السرور.
٧١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي،ط دار الكتب العلمية،ط ١ (١٤١٣) ه(١٩٩٢) م.
٧٢- النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، وزغلول سلام، ط دار المعارف ، ط ثانية ، (١٣٨٧) هـ (١٩٦٨) م .
٧٣- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي، ط دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

mulakhis bahath alzawahir albulaghiat walbinyat aleamiqat fi hukm abn eata' allah alskndry

hadha albahth yatajih lidirasat alzawahir albalaghiat wama laha min hudur fi hukm abn eata' allah alskndry, kama yatajih libian maa wara' albinyat aleamiqat lilhukm min almaeani alzaakhirat, waqad lafatat alhukm albahith bma fiha min 'iijaz fi aleibarati, wadiqat fi alsiyaghat, warueat fi al'uslubi, wahudur liltashkilat albalaghiat almutanawieat fiha, wama wara'aha min thara' fi almaenaa, wamunasabat lilsiyaq.

walbahth yatanawal bialdirasat hadhih alzawahir albulaghiat alty 'alah ealayha almualaf fi alhukm, walfunun albayaniat alty aintaqaha litashkil bayanih wama wara' hdha alaikhtiar min 'asbab blaghit, waqad qam albahith bihasr hadhih alzawahir fi alhukm wadirasatiha dirasatan takshif eamaa baynaha min airtibat min bidayat alhukm 'iilaa nihayatiha, mae al'iisharat 'iilaa almawadie al'ukhraa alty lm yatanawalha albahth bialtahlil walbayan.

فهرس المواضيع

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة.	١
تمهيد: ترجمة موجزة لابن عطاء.	٢
الحكم وموضوعها.	٣
أسلوب الحكم.	٤
المبحث الأول: الظواهر البلاغية في الصور.	**٥**
المبحث الثاني: الظواهر البلاغية في التراكيب.	**٢١**
خاتمة.	٣١
ثبت المصادر والمراجع.	٣٢
فهرس المواضيع.	٣٥